روايات عالمية
من الشرق والغرب

ابن الشعب

للروائى الانجليزى
رافاييل سابانينى

THE TRAMPLING OF THE LILIES

ابن الشعب

بقلم الكاتب الانجليزى

رافاييل ساباتينى

ترجمة

عمر عبد العزيز امين

- ١ -

السكرتير

كان الوقت ربيعا في « بيلكور »
ربيع سنة ١٧٨٩ . اى قبل ثلاثة شهور من حادث سقوط الباستيل ، في قبضة الشعب الفرنسي الثائر . وهو الحادث الذى جعل النبلاء يحبسون انفاسهم . ويشعرون بالالم كما لم يشعروا قبلا بان الحرية والمساواة والاخاء وغيرها من المبادىء الاجتماعية التي نادى بها « جان جاك روسو » واضرابه من الفلاسفة ذلك الزمن .. لم تكن مجرد ابخرة متصاعدة من ادمغة جوفاء . وعقول سقيمة .

فى احد ايام ذلك الربيع كان « لابولاى » يسير على الجسر الممتد بالقرب من الغدير الذى ينساب ماؤه الرقراق وسط حديقة قصر « بيلكور » العظيم .

كان « لابولاى » شابا طويل القامة نحيف الجسم . يرتدى ثوبا اسود يتعارض لونه والمناظر الطبيعية البهيجة التى تحيط بالقصر .

بيد أن هذا الثوب الاسود كان فى ذلك الصباح الباسم يحجب جسما يخفق بين ضلوعه قلب طروب ينبض بالحياة والامل ..

كان الثوب الاسود فى ذلك الزمن شعارا للادباء والمثقفين ودليلا على المداد الاسود الذى هو قوام حياتهم العملية .. ومصدر رزقهم .. وقد ارتدى « لابولاى » الثياب السوداء .. لانه كان من الادباء المثقفين .. ولانه كان يشغل وظيفة السكرتير لدى المركيز دى بيلكور .. انبل نبلاء تلك الناحية

وكان « لابولاى » بطبيعته ممتقع اللون .. غائر الصدغين .. تلوح على وجهه علامات الهم والتفكير .. ولكن عينيه

كانتا في ذلك الصباح تتألقان بنور السعادة والبشر .

اخذ يسير بالقرب من الغدير وتحت ابطه احدى مؤلفات (روسو) التي كانت من اهم عوامل الانقلاب الذي حدث في فرنسا بعد بضعة شهور ..

على ان ذهنه كان في ذلك اليوم ابعد ما يكون عن فلسفة روسو وتعاليمه ..

كان قلبه يرقص طربا بين ضلوعه .. وكان تفكيره منصبا على المخلوقة البديعة الجميلة التي احدثت في نفسه مثل الانقلاب الذي احدثته تعاليم روسو في المجتمع الفرنسي .

كان يفكر في سوزان .. ابنة صيدلي المركيز دي بيلكور . ولم ينس في تفكيره انه كاتب بسيط .. ولكنه كان شديد الايمان بالمستقبل الذي تنبأ به روسو في الكتاب الذي تحت ابطه ..

راح يطأ بقدميه العشب الاخضر . والبنفسج البري .. وامتلأ رئتيه بنسيم الربيع المشبع بشذى الزهور .

وتطرب بخياله الى امنية قديمة .. فترنم بصوت خافت وبشيء من الخجل .. لم تسمع صوته بوقتها غيرها .. حتى لزهرة صفراء بين الاعشاب .

ما اعذب قلب العاشق !

هو ذا شاب صموت بطبعه .. منكمش بطبعه .. اصبح يعرف كيف يغني بصوت مرتفع .. ويغني لنفسه .. لا لشيء الا أن ... وان في بيلكور انتظره بالامس وهي تتحدث اليه حديثا لم تستغرق اكثر من دقيقتين .

وكم من الهناء تحياه . فقد سمع وراءه أطيب صوت في الوجود يسأله عن سر حذله الجنوني .

واغتبط اغتباطه لحظة .. وازداد امتقاع وجهه .

وتطلع خلفه ورأى سوزان فانحنى قامته باحترام .. وتمتم بلسان ملجلج .. دون ان يدري ما هو قائل :

ـ يا آنسة انك اخذتيني على غرة .

كانت حالته تدعو الى الاشفاق .. وكان من المتعذر عليه ان يتخلص من مثل هذا الموقف بشيء من اللباقة . فهو لم يعرف غير كتبه . ولم يألف عشرة النساء .. ولا سيما نساء الطبقة التي اعتاد - برغم فلسفة روسو - ان ينظر اليها بمزيج من الخشوع والاحترام .. وان يعتبرها ارقى من طبقته ..

قالت سوزان في رفق :

- يسرني في اخر ياسيدي ان المفاجئة وانت في مثل هذه الحالة من السرور والجذل .. لانها في الواقع من الحالات النادرة بالنسبة اليك ..

فاجاب في ادب وهو لا يزال في اضطرابه :

- هذا صحيح يا مولاتي .. انها من الحالات النادرة ..

ثم تاوه واردف : وهو مما يؤسف له ..

فانفجرت الفتاة ضاحكة .. وشعر الفتى من هذه الضحكة بدم الخجل يلهب وجنتيه ..

قالت:

- اخشى ان يكون قدومي قد ازعجك وعكر عليك صفوك .

فاحمر وجهه .. واراد أن يحتج على هذه العبارة . قال :

- تقولين ان قدومك ازعجني .. وعكر على صفوي ؟ كلا يا آنسة .. لو انني كنت حزينا فان وجودك يبدد حزني كما يبدد الشمس الضباب ..

فقالت متهكمة .. وهي تنظر اليه بعينين في زرقة السماء .. وتدفع بأصابعها خصلة من الشعر الاسود تلاعب بها النسيم فوق جبينها :

- يخيل الي أنك من الشعراء يا سيدي .. قال ابي انك من الادباء المثقفين .. ولكني لم اكن اعلم انك من الشعراء كذلك .

فأجاب وقد افرح روعه واطمان اليها .

- نحن جميعا نعتبر من الشعراء في وقت ما من حياتنا يا آنسة ..

•

ـ وما هو هذا الوقت الذي فيه يرتفع بنا الخيال الى مصاف الشعراء ؟ .. ارجو أن اعرف ذلك يا سيدي ..

ووجد من لطفها ورقتها ما شجعه . فأجابها من غير خوف او وجل .. وبجراة لم تكن من صفاته قبلا :

ـ في وقت كهذا يا آنسة .. وفي يوم كهذا من ايام الربيع .

أليس الربيع هو موسم الحب ؟ أليس هو الاغنية التي يترنم فيها الشعراء بجمال الطبيعة .. وجمال الحياة ؟

ـ هل افهم من هذا الكلام . وهذا الخيال الشعري انسيدي السكرتير قد لمرق في الحب الى اذنيه ؟

فهتف وهو ينظر اليها نظرة حادة لم يسع الفتاة معها الا ان تتسيح بوجهها :

ـ نعم يا مولاتي العزيزة .. انني عرفت معنى الحب .

والتفتت من فم الفتاة صيحة ذعر .. حين رات الشاب يتلفت بكتاب (روسو) فوق الحائش . ويجثو امامها على ركبتيه . ويستطرد :

ـ .. انني احبك يا آنسة ..

كان لهذه الكلمات الجريئة رد فعلها السريع .. فقد امتقع لون الشاب على الاثر وارتجفت اوصاله . وغاص قلبه بين جنبيه .

بيد انه ظل جاثيا في مكانه .. في انتظار أن تأمره الاميرة بالنهوض ..

رأى سحنتها تنقلب .. وجبينها يتقطب .. ولاحظ انفاسها اللاهثة .. فعرف جوابها قبل أن تنطق به .

قالت بصوت فيه رنة حزن :

ـ سيدي .. أيمكن ان يلعب الربيع بلبك الى هذا الحد ؟ هل نسيت مركزك ياسيدي .. ونسيت كذلك مركزي حتى يدفع بك الجنون ان تتحدث الى بمثل هذه اللهجة لا لشيء الا التي لاطفتك وضاحكتك ؟

اى جواب تنتظر منى يا سيدى ؟ انى لست من الغبـــاوه بحيث استطيع ان اجيبك الجواب الذى تستحقه ٠

◆ ◆ ◆

وكانت نفسية الشاب من ذلك النوع الذى يتولد من الخجل الساحق للكرامة ٠٠ وللمشاعر الانسانيه ٠ ونهض واقفـــا على قدميه وقال بحدة لم يعهدها فى نفســه :

ـ مركزى ؟ ماذا يعيب مركزى ؟ انى رجل مثقف وثقافتى تضعنى فى صفوف الشرفاء والنبلاء ٠ بالله لاتضحكى يا آنسه ٠٠ بماذا يمتاز عنى اولئك النبلاء الذين يختالون فى قصر ابيك ؟ الم يصورلى الله مثل صورتهم ؟ اليس لى مثلهم قوى كحواسهم ؟ اليس لى عقل يفكر كعقولهم ٠٠ ونفس كريمة كنفوسهم ؟ ؟

ان لى من الفضائل مثلما لهم ٠٠ ومع ذلك فانك تحتقرينى ٠٠ وتحتقرينى لمركزى كما تقولين ٠٠ فماذا يعيب مركزى !

لقد غضب فى تلك اللحظة كما لم يغضب فى حياته وحركت كلمات الفتاة فى نفسه المرارة المكظومه ٠٠ واثارت الحقـــد الدفين الذى يضمره لاولئك القوم الذين يمنعون انفسهم نبلاء ٠٠ وتزاحمت عليه ذكريات الماضى القريب والبعيد ٠٠ فتذكر ضروب الاهانة التى لقيها على ايديهم ٠٠ ونبرات الاحتقار التى طالما لجلجت فى اصواتهم كلما تفضلوا بالتحدث اليه ٠

لم يصدر فى كلامه عن غضب على الفتـاة وحـــدها لانه احتقرته ٠٠ ولكنه كان ناقما على طبقة النبلاء كلها ٠٠ تلك الطبقة التى تنكر عليه حقه فى ان يسير مرفوع الراس ٠٠ لانه ليس ابن دوقة او مركيزة او كونتس ٠

وازدحمت فى ذهنه مبادىء فلاسفة الثورة وتعاليمهم ٠٠ وراحت الكلمات تقتتل فى فمه اقتتالا وهو يعبر ـ على مسمع من الفتاة التى احتقرته ـ عن مبلغ نقمته على نظام المجتمع ٠٠ وازدرائه للطبقة التى تنتمى اليها ٠

وتراجعت الفتاة وانكمشت .. وشعرت بالخوف ليس فقط لانها رات الحمل الوديع ينقلب ذئبا .. وانما كذلك لانها سمعت كلاما لا ينطق به غير الثوار المتمردين . وهي فئة من الناس علمها ذويها لن تحتقرهم وان تتجنب اثارتهم انقاء لشرهم .

قال بصوت مرتجف .. واصابعها تعبث بثوبها الحريري الاخضر

ـ سيدي .. انت الان غير نفسك .. ويؤسفني انك تحدثت الي بمثل هذه اللهجة .. لقد كنا اصدقاء يا هير لابولاي .. فدعنا ننسى ما حدث .

قالت ذلك بصوت رقيق فيه معنى الصفح والتسامح .. فاشاح الفتى بوجهه قليلا .. وعندئذ وقع بصره على كتاب روسو . فانحنى والتقطه ..

قال لي حدة :

ـ كلا يا آنسة .. انني كنتعهد بي والما .. ولكنك انت التي كنت غير نفسك امس واليوم .. فشجعتني على ان اقول لك ما قلت ..

وكانما قدر لهذين المخلوقين ان تكون مشاعرهما على طرفي نقيض . وان ينور احدهما عندما يهدأ الآخر .. فان الفتاة ما كادت تسمع عبارته الاخيرة حتى لمعت عيناها فجاة وهتفت

ـ انا .. انا كنتغيرنفسي ؟ ما ذا تقول ياسيدي الكونت؟

ـ انك كنت بالامس واليوم من اللطف . وكانت ابتسامتك لي من العذوبة بحيث ..

فقاطعته الفتاة في غضب :

ـ ماذا تقول ؟ الا تستطيع المراة ان تبتسم لك .. او تتحدث اليك في شيء من اللطف دون ان تتوهم انك ملكت زمامها . وسيطرت على قلبها ؟ حقا انت وامثالك لاتستحقون ان تعاملوا الا كما يعامل الاتباع والعبيد .. فنحن اذا مددنا اليكم خنصرا زعتم لانفسكم الحق في الساعد كله .

انني سمحت لنفسي امس واليوم ان اتحدث اليك في شيء من الرقة .. فكان جزائي منك الاهانة .

ـ كفى .. كفى يا آنسة .. ان الاعتراف للمرأة بالحب لا يمكن ان يكون اهانة لها .. ان احقر مخلوقات الله يحبون الخالق كما يحبه الملوك .. فهل في هذا الحب اهانة للخالق عز وجل ..

ياسيدي .. انك تطرح اسئلة لا يهمني ان اجيب عليها .. واصر على جدل ليس في نيتي ان اخوض فيه .. وبحسبك الآن ان تعلم انك لهيتني بكلماتك .. وصوتك .. ولهجتك .. وانك ستلجئني باصرارك على هذا السلوك الى ان اعاملك بالقسوة .. فمن الخير اذن ان ينتهي الامر بيننا عند هذا .. وان تفهم انني لا اريدك بعد الان ان تعود الى مثل ما حدث والا اضطررت ان اطلب حماية ابي واخي ..

وهنا سمع الاثنان صوتا يقول :

ـ تستطيعين ان تطلبي هذه الحماية الآن يا سوزان .

فذعر الشاب والفتاة على السواء .. وقبل ان يعيا من دهشتهما .. كان المركيز دي بيلكور واقفا امامهما ..

كان المركيز رجلا طويل القامة متين البناء يناهز الخمسين من عمره .. ولكن عنايته الشديدة بمظهره وهندامه . كانت تجعله يبدو اصغر من ذلك سنا واكثر فتوة .

واقترب المركيز ببطء .. وراح ينقل البصر بين سكرتيره وابنته ..

ثم سأل اخيرا : ماذا حدث بالضبط ؟

فاجابته ابنته :

ـ لا شيء ياسيدي .. وقع خلاف بسيط بيني وبين مسيو لابولاي ولكنه لا يدعو الى ازعاجك .

فقال لابولاي بصوت مرتجف :

ـ لا شيء يا مولاي .. كل ما هنالك انني احب ابنتك .. وقد صارحتها بذلك .

كان الفتى على جانب عظيم من الجرأة في ذلك اليوم .
فسطر اليه المركيز في دهشة .. ثم احمر وجهه فجأة .. وزمجر قائلا :
ـ أيها الوغد الزنيم .. هل وصلت بك اللحة الى هـذا الحد ؟
وكان في يده سوط فلوح به مهددا ..
ولكن لابولاي لم يعبأ بهذا التهديد ..
شعر بانه أضاع وظيفته وانتهى الامر .. فماذا يهمه الآن اذا تورط في مزيد من الاخطاء ..
قابل نظرة المركيز بمثلها واجاب بصوت هادىء النبرات :
ـ لست ارى فيما فعلت شيئا من القحة .. ان سلوكي معذب في نظرك .. لانني سكرتير المركيز بيلكور .. ولانها ابنة هذا المركيز .. ولكن هذه معادلة قضت بها الظروف .. اما الحقيقة التي لا دخل للمعادلات والظروف فيها .. فهي انها امراة . وانا رجل . وهذه الحقيقة يجب ان توضع في المحل الاول قبل نسبتها اليك كابنتك .. ووظيفتي عندك كسكرتيرك .
ولقد تحدثت اليها عن حبي .. لا كما يتحدث سكرتيرك الى ابنتك .. وانما كما يتحدث الرجل الى المراة ..
ان من حق كل رجل ان يفعل ذلك .. ومما يشرف كل امراة ان تعلم انها ..
فقاطعه المركيز وقد عجز عن ضبط نفسه :
ـ ايها الوغد .. الا تكف عن تخديش اذني بهذا النهيق .. صبرا ستنال عن تحدثك الجراء الذي تستحقه ..
ورفع يده بسرعة .. فترفع الصوت في الهواء .. وحبط على راس لابولاي .. واحاط بوجهه كالثعبان ..
وانطلقت من فم الشاب صيحة الم .. ووضع يده على وجهه الجريح ..
وعندئذ سقط السوط على راسه مرة ثانية .. والهب بدبه لزمجر كالوحش الجريح .. ووثب على غريمه ..

كان طويل القامة كالمركيز .. ولكنه انحف منه كثيرا .. بل ان الالم والقلق منحاه قوة الجبابرة .. واحالا اعصابه ساعديه الى قضبان من فولاذ .

ووقفت الآنسة لنظر .. وهي مشدوهة قلقة .

رات ذلك المخلوق النحيل ينقض على ابيها وثبة النمر . وينتزع السوط من يده عنوة واقتدارا .

وتراجع لابولاى الى الوراء والسوط في يده .. وبقي المركيز في مكانه وقد امتقع لونه .. وارتجفت اعضاؤه غيظا وحنقا ..

قال لابولاى وهو يطوى السوط بين يديه :

ـ يجب ان نشكر الله على انك متقدم في السن يا سيدى المركيز .. ولولا ذلك لمزقت جسدك بهذا السوط ..

قال ذلك والقى بالسوط في الغدير ثم استطرد :

ـ يبدو انك ستدفع لى ثمن هذا .

واشار الى الندبة الدامية التي احدثها السوط في وجهه .

فصاح المركيز وهو يرغي ويزبد :

ـ انا ادفع ثمن هذا ايها الحيوان ؟

فاجاب الشاب وفي عينيه بريق الحقد :

ـ كلا .. ان لقمتك في السن يحميك مني ايضا .. بيد ان لك ولدا .. فاذا حمت وقلت ولدك هذا .. فيجب ان تعتبر نفسك قاتله .. بسبب هذا ..

فهتف المركيز وهو لا يصدق اذنيه :

واشار الى وجهه الدامي مرة اخرى .

ـ هل تعني انك ستصير الفيكونت الى المبارزة ؟

ـ هذا ما اعنيه يا سيدى ..

فقال المركيز بلهجة السخرية والاحتقار :

ـ ايها الاحمق .. اذا اقتربت من (بيلكور) او وطئت قدماك ارض هذه الحديقة مرة اخرى .. امرت ان تضرب بالسياط حتى تموت ..

ثم تحول الى ابنته وقال :
ـ هيا بنا يا سوزان .. وكفى ما اضعناه من الوقت مع هذا الولد ..
وقدم اليها ساعده .. فتأبطته الفتاة .. وانصرفت دونان تلقى على لايولاى نظرة اخرى ..
وبقى السكرتير فى مكانه حيث تركاه ..
كان وجهه شديد الامتقاع .. فيما عدا الندبة الحمراء الدامية التى تخللت عن ضربة السوط .
خمدت جذوة غضبه .. وهدأت حدة ثورته .. وراح يفكر فى أمره فى هدوء ..
رأى فى نفسه عاشقا محتقرا .. ورجلا مهينا .. وسكرتيرا مطرودا ..
نظر الى كتاب روسو فى حزن .. ولاول مرة فى حياته داخله الشك فى صدق نبوءة هذا الفيلسوف .
نعم .. داخله الشك فى امكان زوال الهوة السحيقة التى تفصل بين الطبقات .. ومحو الامتيازات والفوارق التى تقسم ابناء الشعب الواحد الى نبلاء ورعاع .
وتنهد من قلب حزين .. وشعر بعد انصراف المركيز وابنته بوحشة مخيفة ..
كان وحيدا فى الحياة .. كل سلواه أن يقرأ الكتب .. وكل نعيمه أن يرى سوزان . وأن يحبها فى سكون . ويناجيها عن بعد .
ولكن ها قد حرمت عليه نعمة هذا الحب الصامت واصبح لزاما عليه أن يبرح بيلكور .. وألا يرى سوزان الى الابد .
ورفع قبضته نحو السماء مهددا . ثم مر بيديه فوق وجهه ومست أصابعه الجرح الدامى المتورم .. فغاض الحب من قلبه .. وافسح السبيل للحقد الجارف .
وصاح بصوت مرتفع :
ـ سأنتقم منهم هذا .. سيدفعون لى ثمن هذا ..
وأطرق برأسه . وسار ببطء متتبعا مجرى الغدير ..

- ٢ -

السادة والعبيد

كان صديق لابولاى الاوحد فى سيلكور هو مسيو دوهامل رئيس المدرسة الوحيدة التى يتعلم فيها ابناء المزارعين فى سيلكور والمنطقة التى تحيط بها .

وكان دوهامل هذا شيخا متقدما فى السن .. ينسب الى المبادىء التى كانت سببا فى ضياع لابولاى .. بل لعله كان اشد حماسة لتعاليم روسو من روسو نفسه .. وقد كانت هذه الحماسة اهم العوامل التى وثقت اواصر الصداقة بينه وبين لابولاى ..

وقصد لابولاى الى بيت صديقه دوهامل ليسرد عليه ما حدث .. ويستشيره فى امر مستقبله الذى كان يبدو له فى ذلك النهار اشد غموضا مما كان فى اى وقت مضى .

وجد بيت دوهامل مفتوحا . فدخل . وقصد الى غرفة الاستقبال .. ولكنه مالبث ان وقف ببابها مترددا .

كانت الغرفة غاصة بالقوم .. وجميعهم فى افخر ثيابهم وقد داروا بشاب يمتاز بقوة بنيانه وأناقة ثيابه .. وبقبعته الجديدة العريضة .. التى تزينها شرائط حرير ذات الوان زاهية تلفت الانظار ..

راى لابولاى هذا الشاب . وعرف فيه (شارل ناردیلیه) المزارع العملاق . وتذكر ان ذلك اليوم .. هو موعد زفاف ناردیلیه الى عروسه .

ولقد كان ناردیلیه محبوبا من النساء للطفه ودماثة خلقه ومحترما من الرجال لقوته .. فلم يكن عجبا ان تمتلىء قاعة دوهامل بالمهنئين والمحتفلين . وكان دوهامل قد جعل من تلك القاعة شبه منتدى يغشاه من اراد من اصدقائه للسمر وتبادل الراى وتناقل الاخبار . وقد افسح تلك الغرفة فى ذلك اليوم للمحتفلين بزفاف ناردیلیه .. لانها واسعة مترامية الاطراف

واصلح لهذا العرض من اى مكان آخر فى قرية بيلكور .
وقد رأى لابولاى فى هذا الاجتماع دليلا اخر على كـــرم صديقه دوهامل .. وسعة صدره .. وانسانيته .. ولكنه شعر فى الحال بانه لا محل له فى هذا الاجتماع السعيد .. اذ يكفى ان يرى القوم على وجهه ذلك الاثر الدامى من آثار اللـــوة حتى يستحيل سرورهم حزنا .. وفرحتهم ترحا .. لانه يذكرهم بما تناسوه فى تلك الساعة السعيدة من انهم عبيد اذلاء .. عرضة فى كل وقت لهروب البطش والـــذلة والهوان تصيبهم على ايدى سادتهم النبلاء .
وهم لابولاى بان ينكص على عقبيه حتى لا يشوه على اولئك الفرويين سرورهم .. ولكنه فكر فى ذلك بعد فوات الوقت .. وبعد أن لمحه دوهامل وهو واقف بالباب وقفة المتردد .
نهض دوهامل واقفا .. واسرع لاستقباله والترحيب به .
هتف وهو يبـــط له ساعديه :
ـ اهذا انت يا كارون ؟ انك جئت فى الوقت المناسب .. تعال وعانق هذا الصلاق السعيد .. واطلب له السعادة فى الحياة الزوجية التى وجد الجراة على خوض غمارها .
فتقدم كارون لابولاى وهو يقدم رجلا ويؤخر اخرى .
ونظر دوهامل الى صديقه . ورأى تلك الندبة الحمـــراء فهتف
ـ يا الهى .. ماذا فعلت بنفسك يا كارون ؟
فاجاب لابولاى على عجل
ـ لاشىء .. هذا جرح بسيط ..
واراد أن يهمل الموضوع . لولا ان احد الموجودين اقســـم باحد القديسين على ان الجرح هو اثر ضربة سيوف .
وعندئذ لمعت عينا دوهامل . وتلفتن جبينه . وسأل .
ـ من ذا الذى فعل بك ذلك يا كارون ؟
فاجاب لابولاى وهو يتظاهر بالاستخفاف .
ـ مادمت مصرا على ان تعرف . فاعلم الان ان هذا الجرح هو امضاء مولاى المركيز على امر طردى من خدمته ..

فصمم دوهامل قائلا : ويل للكلب ·
فقال لابولاى :
ـ اعتقد انني اثرت غضبه وتحديه ·· اكثر مما يجب ··
وسوف احدثك بكل شيء ·· بعد انصراف هؤلاء القوم ·
نعم ·· يجب الا نزعجهم او نفسد عليهم سرورهم وسعادتهم
بالقصة البالسة المؤلمة التي سأسردها عليك ·
والآن ·· لعانق تارديفيه ·· ونهنئه ·
وكان دوهامل يتحرق فضولا واستنكارا · ويود ان يعرف المزيد ·· ولكن لم يسعه الا النزول على رغبة لابولاى فارجا الحديث الى حين ··
اما لابولاى ·· فانه اجاب بعبارات مقتضبة مبهمة على عشرات الاسئلة التي القيت عليه · وعانق تارديفيه · وشرب نخب صحته ··
وجاء عقب ذلك رسول من قبل القس فاعلن ان كل شيء قد أعد للحفلة الدينية · فنهض تارديفيه وزملاؤه · وانصرفوا ضاحكين ليلحقوا بالعروس في الكنيسة ·
قال دوهامل محدثا تارديفيه وهو يرافقه الى الباب الخارجي
ـ سالحق بكم مع زميل لابولاى لكي نشهد الحفلة الدينية ونهنيء العروس ، ونتمنى لها حياة سعيدة رغيدة ·
ولما انفرد الصديقان في الغرفة ·· نظر دوهامل الى كارون لابولاى نظرة تساؤل واستفسار فقص عليه الشاب قصته ، واحمر وجهه للبلا عندما تكلم عن حبه للآنسة دي بيلكور ··
ولما فرغ لابولاى من حديثه ·· تنهد دوهامل وقال :
ـ وا أسفاه يا صديقي ·· ماذا استطيع أن اقول لك ··
لم يحن بعد الوقت الذي يستطيع فيه مثلي أو مثلك ان يتحدث عن حبه لابنة احد السادة النبلاء ·
ولكن هذا الوقت سوف يأتي · انه آت ولا ريب فيه ·
ان لكل شيء نهاية · ولقد اشرفت فرنسا على نهاية عهد الاستبداد والظلم والقسوة · فالازمة المنتظرة قريبة · والثار

الكامنة التي لا ترى الآن غير ادخنتها سوف تشتعل وتندلع السنتها فتلمق هذا النظام العتيق من صفحات التاريخ وكانه لم يكن .

فهتف لابولاى :

ـ اعلم ذلك يا صديقي .. ولكن ماذا افيد من كل هذا ؟

فاجاب دوهامل قائلا :

انتظر .. فالانتظار هو المغزى الذى كان يجب أن تفهمه من كلامى ..

لقد وصفوا ما فعلته اليوم بانه فحة .. وقالوا انك لست واحدا منهم .. وان العيد يجب الا يتطلع الى ابنة مولاه النبيل .. ولعمرى بماذا يفترق عنك اكرم النبلاء حسبا ونسبا .

وصعد الشاب بعينيه بنظرة افتخار . كما يفخر الاب بالابن الذى اكتملت رجولته ..

وصاح الشاب فى ضجر :

ـ ولكن ماذا يقتضى الانتظار والصبر .. اريد ان اعرف ماذا يجب ان اصنع .

اذهب الى مدينة (اميان) .. انك شاب مثقف ذلق اللسان حاضر البديهة . حسن المظهر . وكلها صفات تضمن لصاحبها النجاح .

ثم اقترب من الشاب خطوة . واستطرد بصوت خافت كانه يخشى أن يسمعه احد :

ـ لقد انشانا منتدى فى (اميان) .. وهذا المنتدى يضم فى عضويته عددا كبيرا ممن يشاركوننا فى الراى .. ويدينون بمثل مبادئنا ولكن لسوء الحظ لا يوجد بين هؤلاء الاعضاء واحدا يستمتع بمثل مزاياك .. فاذا شئت ذهبت معك الى (اميان) .. وجعلت منك رئيسا لهذا المنتدى .. والى زعيم بأن تصبح فى وقت قريب شخصية لها خطرها فى مقاطعة (بيكارديا) .. وحينئذ لا يبعد أن نبعث بك الى باريس لتمثيل (بيكارديا) فى مجلس الشعب .. ومن يدرى الى اية قمة تصعد بعدئذ .. حين يحدث الانقلاب المنتظر .

فاجاب لابولای ببطء :
ـ ولكن هذا ؟
واشار الى الجرح الذى يشوه وجهه فاجاب دوهامل :
ـ دعه يفعل ..

ـ لقد وعدت المركيز بان اقتص ولقد ثمنا هذه الاهانة .. واني على استعداد لانفاذ وعدى مهما كانت العواقب .

ـ يخيل الى انك تسرعت .. وان وعدك هذا من نوع لايمكن تحقيقه .. اذ من المستحيل ان يسمحوا لك بان تقرب من الهلام او تبارزه ..

ـ اعلم ذلك ولكنى اعلم ايضا ان الغلام اكرم خلقا واطيب نفسا من ابيه .. فاذا بعثت اليه برسالة وذكرت له انني اهنت وانني اريد ان اقتص لهذه الاهانة فانه قد يوافق على مبارزتي .. والا فانني اجد نفسي مضطرا لاغتياله .
فهتف دوهامل :
ـ ذلك من وحشي ضار .. انسيت ان الغلام كان تلميذك وانه كان يتلقى على يديك بعض العلوم ؟ كيف تطوع للاستاذ نفسه ان يقتل تلميذه ؟

.. وظل دوهامل بالشاب يجادله ويناقشه . حتى اقنعه بان الانتقام من الابن للاهانات والاخطاء التى ارتكبها الاب . هو ضرب من القسوة وعدم الانصاف .

وتم الاتفاق بين الصديقين على ان يتطلق (لابولای) فى اليوم التالى الى (امبان)
ثم نهض دوهامل اخيرا وقال :

ـ والآن هلم بنا يا كارون .. لقد كدنا ننسى صديقنا وارشميه وعروسه . فلنسرع قبل ان ينتهى الاحتفال ..
ورابط ساعد لابولای . وانصرف به من المنزل .

وصعد العريسان الى الكنيسة . وما كادا يصلان اليها حتى ابصرا بموكب العروسين يبرحها .

كان موكبا جذلا ضاحكا في ذلك اليوم الهادىء البديع من ايام الربيع .

وبجانب مر من احد الشوارع الجانبية موكب آخر من الفرسان يتألف من المركيز دى بيلكور وابنه الفيكونت دى بيلكور ونفر آخر من النبلاء . وجماعة من الخدم . وخيلهم على استعداد للصيد والقنص .

وكان موكب هؤلاء النبلاء قد اخترق الغربة اختصارا للوقت .. ورغبة في الوصول الى الغابة باسرع ما يمكن ..

وقطع موكب العروسين الطريق على موكب النبلاء ، فتوقف هؤلاء انتظارا لمرور العروسين . وكان وقوفهم في ذاته مكرمة عظيمة . ودليلا على سمة صدر . حقيقة بالشكران .

ولو انهم اخترقوا موكب العروسين . وبعثروا شمل المحتفلين لما كان في عملهم هذا خروج عن السوابق .

ولكن لحسن الحظ . او بالحرى لسوء الحظ . انهم كانوا في ذلك اليوم على جانب عظيم من الكرم وسعة الصدر حيث امسكوا عن مواصلة السير . وتركوا لموكب العرس ان يمر . ويضيع عليهم بمروره بضع دقائق من وقتهم الثمين ..

وقد كان لوجود اولئك النبلاء تأثيره السحرى على الفرويين النصارة . فقد خفتت اصواتهم في الحال .. واحتبست ضحكاتهم .. ومروا امام النبلاء كما يمر سرب من الحمام امام عيني الصقر .. وحمد بعضهم الله على ان النبلاء سمحوا لهم بالمرور على الاطلاق .

ورمق المركيز دى بيلكور موكب العرويين باحتقار وازدراء . الى ان مر به تارديفيه وعروسه .. وعندئذ التهبت شعلة الحياة في عيني الباردلين .. وانحنى فوق جواده . وقال بلهجة الامر :

ـ انتظر ..

فجمد تاردیفیه وعروسه فی مکانهما ·· ولم یجسرا علی مخالفة امر المرکیز ·

استطرد المرکیز قائلا اقترب یا فتاة ··

وهنا أظلم وجه تاردیفیه ·· واضطرب صفاء عینیه · ونظر الی المرکیز نظرة تبلد وتمرد وتهدید ·· ولکن نظرته لم تخل من الخوف کذلك ··

اما العروس فانها أطاعت ·· وتقدمت من المرکیز ·· وهی موردة الوجنتین مطرقة برأسها ·

کانت تتوهم ان المرکیز انما استوقفها ·· لیجود علیها بکلمة تهنئة وتقدیر ·· فلم یداخل نفسها الریبة خوف او ارتیاب ·

سألها المرکیز فی لطف :

ـ ما اسمك یا فتاة ؟؟

فاجابت فی خجل وحیاء :

ـ کنت ادعی « ماری میشلان » یا مولای ·· ومنذ لحظة یسیرة اصبح اسمی « ماری تاردیفیه » ·

ـ اذن فقد احتفل بعقد قرانك منذ لحظة یسیرة ؟

ـ اننا عائدون من الکنیسة الآن یا مولای ·· حیث تم الاکلیل ··

ـ اذن تهنئ احسن یا ماری · واتمنی لك ان تحیی فی مستقبل الایام زوجة سعیدة · وأما أسعد ··

فضحکت والد احمرت وجنتاها : اشکرك یا مولای ·

قال المرکیز : هل تعلمین انك بنیة حسناء یا ماری ؟

قال ذلك بلهجة جعلت الدم یجمد فی عروق العریس التعس ·

اما النبلاء فقد ابتسموا · وضحك أحدهم بصوت مرتفع · فضحکت العروس بدورها ضحکة بریئة · واجابت :

ـ لقد قال لی تاردیفیه ذلك مرارا ·

فاعتدل المرکیز فوق صهوة جواده بحیث یتسنی له الانحناء ·· ووضع سبابته تحت ذقن الفتاة · ورفع وجهها الیه ·

وعندما انتقت عيناها بعينيه • ظهرت على وجهها علامات الذعر والهلع •• وغاض الدم من وجنتيها •

قال المركيز وهو يبتسم :

ـ نعم •• ان تارديفيه حسن الذوق •• ويستحق التهنئة على حسن اختياره •

ثم استطرد على الاثر :

ـ ولكن يجب ان نقدم اليك هدية بمناسبة زواجك ايتها الفتاة • فتلك عادة قديمة مشرفة اوشكت لسوء الحظ أن تندثر •• اذهبي الى القصر مع خادمي بليز وجان . اما تارديفيه الطيب فيجب أن يصبر ويكظم شوقه الى الغد •

ثم استوى على صهوة جواده •• ونادى خادميه بليز وجان •• وامر ماري أن تستقل الجواد خلف بليز •

نكصت الفتاة على عقبيها وامتقع وجهها ونظرت الى تارديفيه بعينين يتمثل فيهما الرعب بكل معانيه ••

اما تارديفيه •• لقد سرت قدماه بالارض •

كان في تلك اللحظة تمثالا حيا للرجل المتألم الساخط العاجز •

وتنهدت احدى النساء وافلتت من فمها انة حزن وأسى •• فقال المركيز ضاحكا •• وهو ينظر باحتقار الى اولئك النساء الذين لا يجسر احدهم على أن يتطلع اليه ببصره :

ـ لعمري •• لقد يخيل للناظر اليكم انكم في مأتم لا في موكب عرس •

وهنا هتف تارديفيه بصوت يفيض بالالم :

ـ رحماك يامولاي ••

والقى بنفسه على الارض ضارعا •• فصاح المركيز :

ـ من ذا الذي يريد بك شرا ايها الاحمق ؟!

فصاح الشاب متوسلا : لا تأخذها مني يامولاي ••

فاجاب المركيز العظيم :

ـ انها ستعود اليك غدا •• افسح الطريق •

لم يكن المركيز فيما اراد وفعل قد تخطى حقوقه القديمة

المزورة بصفة السيد صاحب الامر والنهي في المنطقة التي يملكها .

ولكن تاردييه لم يرضخ لهذا الحق فصاح .

ـ مولاي .. انك لي تأخذها .. انها زوجتي .. انها لي .. واني لن تأخذها ..

وأمسك عنان الجواد بقوة وعنف .. فصاح المركيز في غضب :

ـ يالك من كلب وقح ..

وانحنى بمقبض السوط على راس تاردييه . فترنح الشاب المسكين . واطلقت يده عنان الجواد . وسقط على الارض وقد الرشد

ولكز المركيز جواده .. ومر به فوق جسم الشاب المتهالك .. كما يمر فوق جثة كلب ميت .

ولما ابتعد قليلا .. حول رأسه وقال لمحدثا خادمه بليز .

ـ اذهب بالفتاة الى القصر .

ثم استطرد محدثا زملاءه :

ـ هلموا أيها السادة .. لقد اضعنا من الوقت اكثر مما يجب .

ولم تتحرك يد .. ولم يرتفع صوت بالاحتجاج .. وانطلق النبلاء وهم يضحكون غير آبهين بالماساة التي وقعت امام ابصارهم ..

ودار الفرنسيون بعضهم ببعض كالخراف الملعورة . وشيعوا النبلاء بابصار خاشعة .

وكان لاورلاي ودوهامل قد شهدا هذه الماساة عن بعد . فتحول الاول الى صاحبه وهو متلفع اللون . مرتجف الشفتين .. وهتف بصوت مضطرب :

ـ أيقع هذا تحت أسماعنا وابصارنا ؟ يالالهي .. انكون رجالا يادوهامل ، لنسمح بوقوع هذا ؟

لهز دوهامل كتفيه في يأس .. وقال والحزن يملأ جوانب نفسه :

والاسقام .. ماذا تستطيع ان تعمل ياكارون ؟ اليس السادة ؟ اليس اصحاب الحق في كل ما يرونهم وتصل اليد ايديهم ؟

ان المركيز قد ينتهك القوانين والامتيازات التي ينعم بها النبلاء من قديم الزمان ..

واذن فالقوانين هي التي يجب تغييرها اولا . ومتى تغير القوانين باسم حق تغيرت اخلاق الرجال . اما الآن .. فليس لنا الا ان نرى . وان نسكت .. والا ان نعترف بانهم سادة .. ولهم علينا حق الحياة والموت .

فصاح لابولاي في غضب :

ـ انهم سدنة الجحيم .. من جهنم جاءوا والى جهنم يجب يذهبوا ..

ثم هز قبضته في وجوه الفرنسيين الملعونين وصاح :

ـ ايها الجبناء الاذلاء . ايها الخونة . ان للنبلاء كل الحق في ان يحتقروكم . ولعمري انكم لا تستحقون غير الازدراء والاحتقار . فجرائم القتل وانتهاك حرمات العذارى ترتكب امام ابصاركم .. فلا تحركون ساكنا .. ولا تفعلون بالمجرمين الا ان تنظروا اليهم في خوف وخشوع .

فقال دوحامل :

ـ دع هؤلاء الاشقياء الفقراء ياكارون . فانهم لا يجسرون على ان يحركوا ساكنا .

فصاح لابولاي في غضب :

ـ حمدا لله انك على انه يوجد هنا الآن من يجرؤ على تحريك ساكن . .

واخرج لفافاته من جيبه ..

وكان (بليز) قد الحق الفتاة وراءه دون ان يعترضه معترض .. واخذ يسير حوله وزميله جان يتبعه حتى اصبحا على كتب من لابولاي وصديقه .

ورأى دوحامل الغدارة في يد لابولاي فصاح في ذعر :

ـ ماذا ستفعل ؟!

واراد ان يساعد الشاب فتخلص هذا منه واجاب :
- هذا ما سافعل ..
وصوب الصاروخ نحو بليز واطلقها ..
واصابت الرصاصة راس الخادم .. فمال بجسمه فوق الجواد .. وذعر الجواد وراح يعدو .. فسقط الخادم على الارض .. فطحنته العجلات .

بعد ان احتوى الفضي بليز طلت معلقة بالركاب .. فاجتذبه الجواد المذعور وراءه .. وراحت جثة الخادم النحس ترتطم بالاحجار وترتفع عن الارض ثم تهبط عليها بشدة كلما امعن الجواد في العدو .

اما الخادم جان .. فقد افلتت من فمه صيحة هي مزيج من الغضب والذعر .. واجتلب عنان جواده . وظل واقفا لحظة مترددا بين ان يبدا باختطاف الفتاة .. او بالانتقام لزميله .

ولكن سرعان ما وضح لابولاى حتما لتردده .. الاسلوب الصارم نحوه وصاح به :
- دعب ايها الشقي .. والا اطلقت بزميلك ..
وكان (جان) رجلا حكيما .. فلكز جواده .. وامعن في الفرار ..

وعندئذ صاح دوهامل في ذعر :
- كارون ! انني ارتجف خوفا عليك ياولدى .. اهرب من المكوك في الحال .. في هذه اللحظة .. اذهب الى اصدقائي في (لميان) وسوف ..
وتبعه الفرويون في خوف وتردد ..
كانوا يشفقون ان يعتبر عطفهم على مارى واسراعهم الى نجدتها .. نوعا من انواع التضامن مع لابولاى في الجريمة الخريشة التي اقدم على اقترافها .. فيصيبهم جانب من الانتقام الهائل السريع الذي لابد ان يناله المركبة .

وكان تاردييه قد افاق من اعماله .. ولكنه كان لا يزال مذهولا مضطرب الذهن فلم يدرك في الحال حقيقة ما حدث .

ولكنه ملك حواسه بالتدريج .. وأدرك حقيقة الموقف .. فاوسع الخطى حتى لحق بلابولاى .. الذى كان وقتئذ يساعد مارى على النهوض .

قال له :

ـ سوف اذكر لك هذا الصنيع مدى الحياة ياسيدى

وود أن يقول اكثر من ذلك .. ولكن الفرويين أحاطوا به فى تلك اللحظة .. وراحوا يتصيحون له بالفرار .

قال قائل منهم :

ـ اذهب من هنا ياتاردينيه .. اذهب لى المال واذا كنت حكيما فعجل بالفرار من بيلكور .. فانك لم تعد فيها بمامن ..

وقال آخر :

ـ بل اننا جميعا لم نعد بمامن .. ولست اود ان يجدنى المركيز هنا متى عاد . انه سينتقم .. وسيكون انتقامه هائلا .

وكان لهذا التحذير تأثيره السحرى .. فتبعثر الفرويون فى الحال ، كما تتبعثر الطيور فى فزع اذا هبط الصقر بينها .

وما كاد آخرهم يغيب عن الابصار .. حتى دوى المكان بصيحات المركيز واتباعه ..

واسحر البلاء واتباعهم كالسيل الجارف ..

وكان يتمثل فى نفوسهم ـ ولا سيما فى نفس كبيرهم المركيز دى بيلكور ـ شىء من الغضب والحنق .. بيد ان الشعور الذى كان يغلب عليهم فى تلك اللحظة .. هو الحماسة للحفلة الرياضية الطريفة المنتظرة .. وهل هناك رياضة اطرف من مطاردة احد الرجال واصطياده وهم الذين كانوا لتوهم منطلقين لاصطياد الارانب البرية ؟

قال الخادم وهو يشير باصبعه نحو لابولاى :

ـ هو ذا الرجل يا مولاى .. وها هى ذى الفتاة وزوجها .

وعرف المركيز وجه سكرتيره السابق فضحك ساخرا واجاب :

ـ السكرتير ايضا .. ! يا الهى .. يظهر انه سئم الحياة احمل الفتاة بأجان ..

ووقف كارون منتصب القامة ، مستفز الوجه .. وفى نفسه صلب وحنق .

كان حانقا على الفروريين الذين حاولوا الادبار .. كحنقه على السبلاء الذين أخفوا فى الاقتراب ..

ولم يكن يملك اكثر من ان يطلق الرصاصة الوحيدة التى بقيت فى عدته ..

وقد أراد أن يصل بهذه الرصاصة الى افضل نتيجة ممكنه فصوب الغدارة نحو المركيز بسالة وجراة واطلقها فى غير تردد ..

بيد أن المركيز دى بيلكور كان رجلا محنكا . وقد اشترك فى بعض الحروب . وحذق بعض الخدع . وقد استطاع فى هذه المرة أن ينقذ حياته بفضل احدى هذه الخدع

رأى الغدارة مصوبه نحوه . ومصوبة فى يد ثابتة لا يعرف صاحبها معنى التردد فجنب عدة جواد فجاة . وبقوة . ونهض الجواد على رئتيه الخلفيتين .

وفى هذه اللحظة انطلقت الرصاصة فاصابت صدر الجواد . وهوى الجواد على الارض . وقذف بالمركيز بعيدا ..

وخطر للابولاى فى تلك اللحظة أن ينقض على ذلك النبيل الفاجر وينتزع اظافره فى عنقه ويقتله خنقا قبل أن يفتاوه .

ولكنه ما كاد يعزم امره على هذا الرأى ويخطو الى الامام خطوة واحدة . حتى هجم عليه احد السبلاء .

وشعر لابولاى بضربة هائلة تصيب راسه . واحس بضوء النهار يتلاشى . واظلمت الدنيا فى عينيه وسقط فاقد الرشد

- ٣ -

انتقـــام المركيز ..

عندما فتح لابولاى عينيه .. وجد نفسه ملقى على ظهره وسط فناء واسع فى قصر بيلكور ..

وكانت تشرف على هذا الفناء مقصورة كبيرة جلست فيها سوزان دى بيلكور وجماعة من النبلاء والسيدات .. وقد راحوا جميعا ينظرون الى الشاب الذى عنى الخدم باسعافه لكى يتفوق امتلام المركيز كاملا ..

واسترجعت سوزان مأساة الصباح فى ذهنها .. ولم يسعها الا الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بأن كارون لابولاى شاب حسن المنظر .. - وهو ما لم تلاحظه قبلا - وانه كان بليغا ونبيلا عندما ثارت ثائرته .. واحرجه الغضب عن هدوئه وخجله ..

وتذكرت كلماته الملتهبة .. وغرقعة السوط على وجهه المنفوخ النبيل .. وتنهدت ..

لو انه فقط كان من طبقتها .. ولم يكن من الرعاع وابناء الشعب .. انى لكان من دواعى فخرها وارتياحها أن يطارحها الغرام ..

وعندئذ سمعت ابيها خلفها ..

كان قد دخل المقصورة ليفسر عما اذا كان لابولاى قد عاد الى رشده ..

اجابه احد النبلاء :

- لقد بدأ يتحرك ويسترد صوابه .

وهنا هتف المركيز :

- آه .. اهذا انت يا سوزان ؟ هو ذا صديقك السكرتير لقد طاب له اليوم ان يقوم بدور جديد .. لم يعجبه ان يكون خادمى .. فاراد أن يصبح قاتل ..

وشعرت سوزان بشيء من العطف على الشاب التعس ·· وهم ·· في هذا الشعور من عفوق نحو أبيها ··

أدركت أن تمرده ـ مهما كان مظهر هذا التمرد ـ اســـ ا ه له لتلك الندبة الدامية التي لشوه وجهه ·· وخيل اليهـا ا·· ثم ينحط جدود الرجولة اذ راح يحاول الانتقام بطريقة ما تحرج الفتى آدمي وجهه وكرامته ··

ارادت أن تعرف المزيد من تفاصيل الحادث فسألت أباها :

ـ ولكن ماذا فعل يا سيدي ؟

وأجابها المركيز بصوت أجش :

ـ انه فعل ما يبرر خنقه · فقد اراد مقاومة بفوذي وحرض ع دي بيلكور على التمرد على سلطتي · ثم قتل بليز وارتئ ن يقتلني لولا انني تركته يقتل جوادي ·

وهنا هتفت المركيزة دي بيلكور :

ـ يا له من كلب وقح ! اذا نحن سمحنا لأمثال هذا الرجل ـ يعيشوا في فرنسا ·· اصبحت أيامنا معدودة ·

فقالت سوزان دون أن تعبأ بكلام أمها :

ـ قيل لي انك ستشنقه · فهل هذا صحيح ؟

فأجاب المـــركيز : لا ·· لن اشنقه ولكني سأفي بوعد طعنته على نفسي لهذا الوغد ·· لقد وعدته اذا اقتربمن بيلكور ـ آمر بضربه بالسياط حتى يموت ·· وذلك ما سأفعله الآن

فهتفت سوزان في ذعر :

ـ يا الهي ··

وأطلقت مثل هذه الصيحة من أفواه ثلاث او اربع بيلات غريبات ··

أما المركيزة فانها استحسنت رأي زوجها ·· وقالت وهي تضحك :

ـ هذا جزاء عادل ·· ودرس نافع للأوغاد أمثاله ··

وهبط المركيز الى فناء القصر ·· ليصدر اوامره الى اتباعه بشرف على معدات انتقامه الوحشي ··

وشعرت سوزان بقلبها ينوب شفقة ورحمة ..

وانتصبت واقفة بقامتها الطويلة الرشيقة .. وانحنت فوق حاجز الشرفة لترقب ما يحدث .. ولم تصل الى وعيها كلمة واحدة من العبارات التي كان الشيخالية ذي جاكلان يوجهها اليها ..

سمعت اباها يصدر اوامره بصوت خشن .. ورات الخدم يمزقون ثياب السكرتير التعس .. ثم رات هذا المسكين وهو يساق الى الفناء ويشد بالحبال الى وتد معد للتعذيب ..

واقبل رجل قوي الجسم مفتول الساعدين .. يحمل في يده سوطا ضخما .. وسأل المركيز بقوله :

ـ كم ضربة يا مولاي ؟

فقال المركيز :

ـ كم ضربة ؟ . وهل اعلم كم عدد الضربات اللازمة لارساله الى العالم الآخر ؟

اضربه يا رجل حتى يموت ..

ورات سوزان ذلك الصلاق وهو يتراجع الى الوراء ويحرك السوط فوق راسه ..

وفي هذه اللحظة رفع كارون عينيه فقابلتا عينيها . وابتسم لها ابتسامة باهتة خيل للفتاة معها ان قلبها قد كف عن الحركة

ولم يكن قد بقي في المقصورة من السيدات سواها .. وسوى والدتها .. اما الاخريات فانهن انسحبن بسرعة عندما ابصرن لابولاي وهو يشد الى الوتد ..

بقيت المركيزة في المقصورة .. لانها كانت تشعر بالفضول الى رؤية هذا المشهد .. مشهد شاب يضرب بالسياط حتى يموت ..

اما سوزان فانها بقيت .. لان الرعب صار قدميها الى الارض ..

كانت سوزان تشعر بالرعب .. وبالاشفاق على هذا الشاب

الذي كان ممتلئا صحة وقوة وشجاعة .. حين حدثها بغرامه في الصباح ..

دار السوط في الفضاء فوق رأس العملاق .. وشق الهواء بصوت مسموع . وقرقع فوق جسد الشاب . فوثبت الفتاة من مكانها . وقد ارتعدت فرائصها . وارتجفت أوصالها وغطت وجهها بكفيها لتحجب هذا المنظر البشع عن باصرتيها وانطلقت من المقصورة وهي تهتف :

ـ يا الهي .. هذا مخيف . هذا مخيف !

وتهالكت على أول مقعد صادفته . ووضعت أصابعها في أذنيها ..

ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تسمع .

سمعت أولا ضحكة جذل أفلتت من شفتي أمها .. ثم سمعت دوي السوط وسقوطه على الجسد العاري .

راحت تحصي الضربات دون أن تشعر . فلما أحصت عشرين ضربة ساد السكون ..

سألت نفسها ترى هل انتهى الأمر . وهات ذلك التعس المسكين ؟

وقلب فضولها على استكارها فنهضت والفة . واقتربت من باب المقصورة . وسألت :

ـ هل انتهى الأمر ؟!

فهز شيفاليه جاكلان كتفيه واجاب :

انتهى الأمر ؟ انا ما زلنا في البداية . وقد تربت الجلاد ليلتقط انفاسه . هذا كل ما هناك .

ان التعس لم ينطق بكلمة .. ولم يرسل آهة واحدة .. انه شديد العناد كالبغال .

فقال الفيكونت الشاب تعليق سوزان .

ـ بل قل انه صبور على انكاره صبر الابطال .. انظري اليه ياسوزان ! !

فاطاعت سوزان على الرغم منها . وتقدمت خطوة الى الامام

ليتسنى لها أن تراه ..

رأت وجها شديد الامتقاع كوجوه الاموات . وجها يلمح عرق الاخضرار على بشرته الخضراء ..

أما الشفتان فكانتا مطبقتين باصرار . وأما تقاطيع الوجه فلم تكن تدل على شيء من مختلف المشاعر الانسانيه .

وأمر المركيز الجلاد باستئناف العمل ..

وهنا حدث كما حدث في المرة الأولى .. التقت عينا لابولاي بعيني الفتاة بيد انه لم يبتسم كما ابتسم لأول مرة .

وارتفع الصوت .. وفرقع في الهواء . وهبط على الجسد الآدمي الحي فمزقه تمزيقا ..

وتراجعت سوزان الى الوراء .. ولكنها لم تنس تلك النظرة وخيل اليها أن عيني لابولاي ما زالتا تحملقان في عينيها .

وحزمت رأيها فجأة على امر . وانطلقت من الغرفة بهيئة الفزع والاشفاق .. وبعد لحظة كانت تجتاز فناء القصر كالطاووس المنزعج . صارخة : كفى .. كفى ..

فتحول اليها المركيز والجلاد .. ووقف ثانيهما مترددا .. ولكن المركيز أمره بعينيه أن يستأنف عمله .. فاستأنفه ..

وفتح لابولاي عينيه في تلك اللحظة .. ورأت فيهما سوزان وميضا عجيبا ..

وعندئذ هجمت سوزان على الجلاد . .واختطفت من يده السوط فلم يجرؤ على مقاومتها ..

وصاحت به وشرر الغضب يتطاير من عينيها

ـ الم آمرك ان تكف ..

واهوت بالسوط على رأسه وكتفيه واعادت الكرة المرة بعد الاخرى بسرعة .. حتى فر الرجل من أمامها وهو يئن ويتأوه

وصاحت به :

ـ ان ضربات السوط تؤلم .. اليس كذلك ؟

أما المركيز فانه شعر أولا بالغضب .. ثم انفجر ضاحكا

حين رأى الغالرة تدور على الجلاد ·· وابصر الاخير وهو يمر مسعورا أمام فتاته ··

وهمت الفتاة بان تنقلب الجلاد والسوط لا يزال في يدها غير ان بصرها وقع بغتة على جسد لاپولاى المزق ·· وجراحه فتراجعت الى الوراء في ذعر وجزع ··

وانتظمت دقيقة او اكثر قبل ان تتمالك نفسها · وتستجمع شجاعتها ··

ثم تحولت الى ابيها · وقالت ضارعة :

ـ اعطني هذا الرجل يا سيدي ·· امنحني حياته ··

وهتف المركيز :

ـ امنحك حياته ؟ وماذا في نيتك ان تصنعي به ؟

فاجابت :

ـ اعدك بان اخلصك منه ·· فهل تطلب اكثر من ذلك ؟ انك عذبته بما فيه الكفاية ··

ـ ربما ·· ولكن هذا الذنب ليس ذنبي ·· اذ كان يرفض ان يموت بسهولة ··

فراحت تتضرع اليه ان يكون رحيما ·· وانها بسبيل ذلك اذا بها تتلقى صدمة غير منتظرة ·· جاءتها من الكونت دي كادو ·· وهو نبيل طيب القلب متقدم السن ·· كان قد شهد منظر التعذيب بشيء من الاشمئزاز والاستنكار ·· فلما اسرعت سوزان الى فناء القصر لمنع هذه الوحشية ·· لحق بها على الاثر ·· وضم صوته الى صوتها ··

قال دي كادو :

ـ انه شاب باسل يا بيكور ·· وحرام ان يموت هذه الميتة البشعة ··

اني ارتاب كثيرا في انه يحيا بعد الذي اصابه ·· فدعني ارحوك باسم المروءة والرجولة والشجاعة ان تسمح له بهذه الفرصة الهزيلة للحياة ··

فقال المركيز :

وكان مظهره يدل على شدة عنايته بهندامه واناقته . ولولا انه كان يرتدي ثوبا اسود لتوهم الناظر اليه انه من اولئك الذين يغشون المجتمعات لاصطياد النساء والايقاع بالعذارى .

اما تقاطيع وجهه المتقع فكانت تكذب بعضها بعضا ..

فتلكما العينان الضيقتان الغميقتان . تكذبان مظاهر القوة التي تسم عليها عظام فكيه . وانفه الاقنى العجيب يكذب مظهر الدكاء الذي تدل عليه جبهته العريضة .

وقد كان هذا الزائر جالسا على أحد المقاعد ببساطة وارتياح عندما جيء بكارون الى بيت دوهامل . وعندئذ نهض واقفا . ونظر طويلا الى جسم كارون المسجى ثم نظر الى دوهامل مستفسرا ..

واجابه دوهامل في حزن :

ـ انه الشاب الذي حدثتك عنه . واني احمد الله على انهم لم يقتلوه ..

والواقع .. ان ذلك عمل من اعمال الرحمة لم اكن اتوقعه من اولئك الذئاب . انه عمل لا استطيع ان افهمه او اعلله .

فاجابه جيلبر الخلاد :

ـ ربما استطاع سيدي ان يفهمه ويعلله متى علم ان المركيز يعتقد انه مات ..

لقد حسبنا جميعا انه مات .. ولما حملنا وثاقه .. ووجدنا انه لا يزال على قيد الحياة .. توسلت الينا الآنسة دي بيلكور ان ننقذه ..

انها انفدتنا مبلغا من المال لكي نكتم هذا السر .. ولكن مال فارون كله لا يغريني بالصمت اذا خطر لي ان المركيز قد يعلم بالحقيقة ..

لذلك يجب ان يبرح هذا الشاب بيلكور في الحال . بل يجب ان يبرح مقاطعة بيكارديا كلها يا سيدي ..

نعم يجب ان تعدلي بذلك .. فان المركيز لا يتردد في قتلنا شنقا اذا علم انه لم يمت . .

... غضب عبد الزائر غضبا ، وتقلصت شفتاه فازدادت حلمته ...

وهتف

- هول ان المركيز لايتردد في قتلكما .. يا الهي . يجب ان نعمل على تغيير هذه الحالة يا دوهامل .. نعم .. اعتقد ... اعمل على تغييرها باسرع ما يمكن ..

فهتم دوهامل :

- يعلم الله انها جديرة بالتغيير .. حقيقة بان تقلب راسا على عقب .. واني اسال نفسي عن حكمة الله في امهال هؤلاء الاثمة .. والسكوت على طغيانهم وجبروتهم .. وهم الجديرون بان تمطرهم السماء نارا حاميه ..

فنظر الزائر الى دوهامل بحدة .. كانما ليذكره بوجود اتباع المركيز ..

وتحول دوهامل الى جيلز وقال له .

- ساخفي هذا الشاب النحس في منزل حتى يسترد قواه ويستيقظ في حالة تساعده على الانتقال وعندئذ ابحث عن وسيلة اما درة هذه المنطقة ..

فزمجر الخادم الاخر .. وهز جيلز راسه واجاب :

- ذلك لا يجدي يا سيدي .. اذ ما يكون الحال اذا علم كلز بوجوده هنا ؟

فقال الزائر :

- ساقترح حلا .. دعني اصحبه معي في مركبتي .. ولي استطاعتي ان اتركه في (اميان او (بوفيه) او اي مكان آخر امن من فيه على حياته واذا لزم الامر حملته معي الى باريس

فنظر دوهامل الى الزائر نظرة شكر وعرفان بالجميل وهتف

- انك رجل طيب القلب يا مكسيميليان

فكذا تم الاتفاق بين خادمي المركيز ودوهامل .. ولم يعرف جيلز وزميله الا بعد ان وعدهما دوهامل باخراج

التعب من بيلكور بل ومن مقاطعة بيكارديا كلها قبل ان تبزغ شمس اليوم التالى ..

وما ان انصرف الخادمان حتى أخذ الزائر يسير فى الغرفة حيثة وذهابا .. ويداه معقودتان خلف ظهره .. وراسه مائل الى الوراء على طريقة النبلاء الذين كان يستهجن اساليبهم منذ لحظة ..

قال مرة أخرى :

نعم .. يجب أن نعمل على اصلاح هذه الحالة يادوهامل . ولكن ينبغى اولا ان نجمع كلمتنا ونتحد لحماية الضعيف من طغيان القوى ولتقليم اظافر البعة الظالمين .. واعطاء كل ذى حق حقه ..

ينبغى اولا ان يتذوق الناس جميعا طعم الحرية .. وان يشعروا بانهم يسيرون فى مضمار الحياة على قدم المساواة .. بذلك فقط يستطيع معالجة المظالم التى جلبها طغيان الحظ الانسانى العنيد .. ذلك الحظ الذى يأبى أن يولد بعض الناس فى العسق والحرير .. بينما يولد آخرون فى مهد الشقاء والجوع والألم .

يجب أن يخضع القوى لمثل الالتزامات والواجبات التى يخضع لها الضعيف . ويجب ان يكون للضعيف مثل الحقوق والامتيازات التى يتمتع بها القوى .. وبذلك فقط يصبح الناس سواء امام قانون واحد لا يعرف للفاضلة والتميز ..

وهنا تحرك كارون فى مكانه .. ورفع راسه ليتامل ذلك الذى لخص فى بضعة سطور حجم المبادىء التى كان يدين بها طيلة السنوات الاخيرة ..

هتف :

ـ من ذا الذى يتكلم ؟ اهو جليفة روسو ؟

فتحول مكسيليان الى الشاب بحدة . ثم اقترب منه وسأله بشىء كثير من الاهتمام :

ـ هل قرات مؤلفات روسو يا فتى ؟ !

فصاح كارون ٠٠ وقد انسى آلامه بجانب السرور الذى شعر به اذ وجد على مقربة منه زميلا يونق قلبيهما ايمانهما المشترك بمبادىء روسو العظيم ٠ ٠

ـ قرأت مؤلفاته ؟ ٠ ٠لا يوجد سطر واحد فى جميع كتبه لم احفظه عن ظهر قلب ٠٠ ولم أترنم به فى خلوتى ٠٠

لقد كنت ارجو دائما أن يأتى يوم تتحقق فيه أحلام روسو ونبوءاته ٠٠ وتتبدل فيه هذه النظم الظالمة الطاغية ٠٠

فلمعت عينا مكسيمليان واجاب بحدة :

ـ ان رجاءك يوشك أن يتحقق يا فتى ٠٠ نعم ٠٠ سيتحقق رجاؤك ولو اقتضى ذلك ان تقطع الرؤوس المتوجة بالاكاليل ٠

فسأل لابولاى وهو ينظر الى محدثه باهتمام :

ـ من انت يا سيدى ؟

فاجاب الزائر : اسمى روبسبير ٠

ولم يكن اسم مكسيمليان مارى ابزيدور دى روبسبير الذى قدر له ان يصبح بعد شهور قلائل اشهر اسم فى فرنسا ٠٠ نقول لم يكن هذا الاسم شيئا مذكورا يومئذ ٠ فأطرق لابولاى برأسه ٠٠ وتناول من يد دوهامل قدح النبيذ الذى قدمه اليه وكان دوهامل قد جاء باربطة واناء ماء ٠٠ فقال محدثنا لابولاى :

ـ والآن ٠٠ دعنا نفحص جراحك ٠٠

فاستوى لابولاى جالساً ٠٠ وشرع يجانب روبسبير اطراف الحديث بينما كان دوهامل يغسل جراحه ويضمدها ٠

سأله :

ـ هل أنت ذاهب الى باريس يا سيدى ؟ !

ـ نعم يا سيدى ٠ ان عملى فى مجلس الشعب ٠

فهتف لابولاى وقد تضاعف اهتمامه :

ـ أانت نائب ؟

ـ نعم يا سيدى ٠٠ فقد وقع على اختيار اصدقائى فى (اراس) لأكون نائبا عن دائرة (ارتو) فى مجلس النواب ٠

ـ يا الهي كم احسدك ·· ليتني كنت مثلك عائدا لكراسهم في التشريع ·· واعمل على تعديل القوانين القائمة ·

فهذه القوانين ـ بوضعها الحالي ـ اسوأ من الفوضى بين البرابرة المتوحشين ·· بل ان البرابرة المتوحشين اسعد منا حالا ·· لأنهم يحيون حياة طبيعية قائمة على الموازنة بين الحقوق والواجبات · انهم أدنى الى الحياة السعيدة المنظمة منا نحن الذين نعيش في هذا الجزء من حطام المدنية الذي نسميه فرنسا ·

ان المساواة هي الأساس الطبيعي للمجتمع الانساني السعيد وكل تشريع لا يقوم على المساواة هو تشريع جائر ظالم ·

والحالة التي تعانيها فرنسا الآن ·· هي حالة تغري القوي بايثار مصلحته على مصلحة الوطن ·· وتغري الفقير بالتمرد على النظم والقوانين التي لا تجلب له غير البؤس والشقاء ·

فنظر روبسبير الى الشاب في شيء من الدهشة وقال :

ـ لم تذكر لي ياذيهامل ان صديقك هذا خطيب مفوه كما هو وطني متحمس ·

فابتسم لابولاي واجاب :

ـ انني لست خطيبا ياسيدي ·· ولكني أردد فقط آراء روسو ومبادئه ·· فقد اعتنقت هذه الآراء وهضمتها واصبحت ارددها كما لو كنت صاحبها ·

استمر الحديث بين الشابين ساعة او بعض ساعة ·· وكانت كل دقيقة تمر تقرب بين قلبيهما ·· وتوحد بين آرائهما ·· واخيرا فطن روبسبير الى مرور الوقت فنهض واعلن عزمه على الرحيل ·

سأله دوهامل :

ـ هل تصطحبه معك الى باريس ياماكسيميليان ؟

ـ طبعا ·· واذا لم استطع ان أجعل منه شيئا مذكورا بفضل مواهبه فانني لا أكون جديرا بالثقة التي يضعها في اصدقائي ·

- ٥ -

الظروف تنقلب ذئابا

دوت صيحات الغضب وصرخات الثأر فمزقت سكون الليل .. وارتفعت السنة اللهب فوق قصر بيلكور فبددت الظلام الدامس .. حتى كان يخيل لعابر السبيل على بعدة انها جزء من الشفق لو صح ان الشفق أول ما يبدو من الغرب ..

والقى هذا اللهب مرصاصات كانت تشق الظلام كانها الشهب .. وارتفع فوق كل هذا زئير كزئير الأسود الغاضبة .. هو زئير الفلاحين الثائرين الذين مزقوا قيود الذل والقوا عن عواتقهم نير العبودية الذى رزحوا تحته الأجيال الطوال .

مر الزمن .. وتطورت الحوادث والاحوال بأسرع من مرور الزمن ..

وانقضت اربعة اعوام بعد تلك الليلة التى فر فيها كارون لاجولاى فى مركبة روبسبير ..

وفى خلال هذه الأعوام الأربعة .. تحققت اكثر النبوءات وحدثت امور اخرى لم يتنبأ بها احد .. منها ان الآلة التى اخترعها الدكتور جفيوتين منذ بضعة اعوام .. واصبحت الآن تدعى (الموسى الوطنية) . احتلت لنفسها مكانا لم يقدر حتى مخترعها انها ستحتله يوما ما .

والواقع ان هذه الآلة الجهنمية اصبحت ظاهرة من ابرز ظواهر الانقلاب .. بل اصبحت شخصية مرهوبة الجانب .. وتوالى ظلها فى طول فرنسا وعرضها ..

وفى هذا الظل .. كان الظالمون يرتجفون هولا وذعرا .. بينما كان ابناء الوطن الأذلاء يستمدون الجراءة والشجاعة .

نعم تشجع الأذلاء واستبسلوا .. ومزقوا قيود الذل التى علت أعناقهم قرونا .. واستحالوا من خراف وادعة الى ذئاب غاضبة جائعة تبحث عن فرائسها بين أولئك الذين نهشوا لحومها أجيالا متعاقبة ..

ولم يبق فى فرنسا على سعتها ركن لم تصل اليه الثورة ولم يزلزله الانقلاب .. وقد وصلت الثورة الى قصر الملك .. قبل أن تصل الى قصور النبلاء . فسجن لويس السادس عشر وحوكم واعدم .. ومن لم يسجن من النبلاء او يعدم او يقتل بأيدى العبيد الذين اذلهم .. راح يلتمس السلامة فى الفرار .

وهكذا سقطت الرءوس المتوجة فى الأوحال .. وديست الراية الملكية ذات الزنابق الثلاثة تحت الاقدام .. وارتفعت الراية المثلثة الالوان .. التى ترمز الى العهد الجديد .. عهد الحرية والاخاء والمساواة ..

على أن بقية من النبلاء العبدين المتجرفين .. الذين ابى عليهم عنادهم وابت عليهم كبرياؤهم أن يعترفوا بزوال العهد القديم .. رفضوا الا البقاء فى قصورهم واملاكهم .. ومواجهة العاصفة وهى فى عنفوان قوتها وجبروتها . فكانوا بذلك سببا فى مشاهد ومآسى كتلك التى وقعت فى بيلكور فى شهر فبراير سنة ١٧٩٣ (بحساب العبيد) أو شهر بليفيوز سنة ١ (بحساب الثورة) .

كان المركيز دى بيلكور .. وهو من اشد النبلاء الاقطاعيين عنادا وقحة . قد صمد للعاصفة وحاول طول شهور الثورة أن يحتفظ بسلطانه فى تلك المنطقة من مقاطعة بيكارديا .

بيد انه ما لبث ان شعر بقرب النهاية .. وبان الزوبعة التى عصفت بغيره من النبلاء واقتلعت الملك عن عرشه .. توشك كذلك أن تقتلعه من القصر الذى تحصن فيه . فبدأ يعد عدته للهجرة .

على أنه اراد ـ من فرط كبريائه وعناده ـ الا تتخذ هجرته صبغة الفرار .. فتباطأ فى اعداد العدة الى اخطر حد .

ولما حزم امره اخيرا على الفرار ·· رأى ـ اصدقا في الصمت والتظاهر بالرزانة ـ أن يقيم حفلة للوداع ·· ولمناسبة خطوبة ابنته للفيكونت دومبريفال ··

وكان أهم غرض يرمي اليه المركيز من وراء الاحتفال بخطوبة ابنته في تلك الاوقات العصيبة هو التعبير عن تجاهله واحتقاره للثورة والعهد الجديد ·

فلما كانت ليلة الاحتفال ·· خف من بقي من نبلاء بيكارديا الى قصر بيكوكور · فاجتمع منهم هناك ثلاثون رجلا وعشرون سيدة ·· ودارت حول مائدة فخمة وضعت عليها أشهى الاطعمة وأفخر الانبذة ·

كانت الحفلة في بدايتها حزينة صامتة · فان مصرع الملك كان لا يزال ماثلا في الأذهان · بيد أن الخمر ما لبثت أن حلت الالسن من عقالها · وزينت للقوم أن يختلسوا ساعة سرور ولهو من ذلك الزمن المضطرب · فزال الجمود بالتدريج · وابتسمت الوجوه بعد وجوم ·

وان القوم في عنفوان سرورهم وجذلهم · وانهم يرقصون او يختالون في ثيابهم الحريرية المعطرة · اذا بهمسة انذار تحيل سرورهم فزعا · وضحكاتهم وجوما ·

دخل أحد الخدم قاعة الاحتفال وهو ممتقع اللون مرتجف الأوصال وشق طريقه بين المدعوين · وقال للمركيز همسا ان الفروبين يزحفون على القصر ·

وغضب المركيز ·· ولم يجد منفذا لغضبه الا ان يصفع الخادم على وجهه ·

صاح به في حنق :

ـ أتجسر على أن تحمل الي مثل هذا النبأ ؟!

فقال الخادم وهو يرتجف فزعا :

ـ ولكن ماذا تستطيع أن تفعل يامولاي ؟

ـ ماذا تستطيعون أن تفعلوا ؟! أوصدوا الأبواب · وانصحوا لأولئك الاغبياء أن يعودوا الى مراقدهم اذا كانوا يقيمون لحياتهم وزنا ··

كان لا يزال يعد نفسه سيدا ·· ويعد اتباعه عبيدا له عليه حق الموت والحياة ·

ولكن الآخرين لم يروا مثل رأيه ، فصمت انغام الموسيقى ·· ودار النبلاء بخيفهم · وراحوا يشيرون عليه باتخاذ بعض الاجراءات التي تلتقيها سلامتهم ·

كانوا يريدون قبل كل شيء ضمان السلامة للسيدات اللاتي دب الفزع في قلوبهن ·· فصحن يصرخن ويولولن ·

وحدثت في المكان ضجة ·· فقد المركيز سلطانه على نفسه ·· وكشف عن وحشيته الغريزية فصاح في خشونة

ـ سيداتي ·· هذا العويل لا يفيدنا شيئا ·· وإذا كان لا بد لنا أن نموت ·· فلنمت نبلاء كما عشنا نبلاء ·· لا صارخين مولولين ·· كالأوز المذبوح ·

ان الثبات والشجاعة والاحتقار هي الأسلحة التي سنطعن بها مواجهة هؤلاء العبيد الثائرين ·

ووقف النبلاء أمام الموائد وراحوا يرقبون الفلاحين وهم يقتربون والمشاعل في أيديهم ·· والطبول تتقدمهم ·

كانوا في الحق جماعة من طغمة الفلاحين ·· تبدو على وجوههم علامات القسوة ·· وقد تسلحوا بكل ما وصلت اليه أيديهم من عصى وخناجر وبلطات وفؤوس ·

وكان بينهم عدد غير قليل من النساء المهلهلات الثياب المشعثات الشعر · اللواتي عضهن الفقر القاسي بأنيابه في الشهور الأخيرة ·

أخذوا يسيرون بخطوات تنظمها دقات الطبول ·· ويلوحون بأسلحتهم ذات اليمين وذات اليسار ·· ويرفعون عقيرتهم بنشيد (المارسيليز) الذي كان أمنية فرنسا من أقصاها الى أقصاها طيلة العام الأخير ·

وكان المركيز دي بيلكور قد وضع في قناع القصر حماية خدمه الأمناء ·· الذين لا يعلم غير الله لماذا ظلوا أوفياء لأصحاب النجم الآفل ··

وقد زودهم المركيز بالأسلحة والذخيرة ·· وأمرهم

يصمدوا للثوار ما استطاعوا .. وان يردوهم عن البـــاب الخارجي .. فاذا لم ينجحوا فعليهم الارتداد داخل القصر .. وتغليق جميع الأبواب وتحصينها .

ثم صعد المركيز الى قاعة الاحتفال . وجميع النبلاء حوله .. وكان عددهم يربو على الثلاثين كما ذكرنا . وطلب اليهم ان يسلحوا للاشتراك في الدفاع عن القصر اذا قضت بذلك الضرورة .

ولكن هذا الطلب قوبل بالفتور من جانب النبلاء .. وقال الفيكونت دومبريفال خطيب سوزان :

ـ فكر فيما تقول يا عزيزي المركيز .. اتطلب الينا ـ ونحن صبوفك ـ ان نتسلح ونداقع عن قصرك ضد الباعة ؟! لا شك انه كان من اول واجباتك ان تؤمن سلامتنا وحياتنا ضد الثائرين من غوغاء بيتكور .

فضرب المركيز الأرض بقدمه .. واوشك في غضبه ان يصفع دومبريفال . لولا ان تدخل الكونت دي كادو في الوقت المناسب .. فراح يوضح للنبلاء موقفا لا يوجد أوضح منه . الهمهم أن الأحوال قد تبدلت . وان فرنسا لم تعد فرنسا .. والهم يجب ان يتعاونوا مع المركيز دي بيتكور .. لان مركزه ليس اسوأ من مركز اي واحد منهم .. وان عليهم اخيرا ان يختاروا بين ان يتسلحوا للدفاع عن انفسهم .. او ان يتلوا صلواتهم ويستعدوا للذبح مع السيدات ..

وختم الكونت حديثه بان قال وهو يقدم علبة السعوط الى المركيز في هدوء الشخص الذي يتحدث عن آخر الأزياء :

ـ انني افهم شعوركم . وادرك انكم تستنكرون الشجاعكم والتضارب مع هؤلاء الرعاع .. ولكن يجب ان تفكروا في هؤلاء السيدات .

ولم تنعب كلمات الكونت سدى .. لانها اثارت الحماسة في نفوس النبلاء جميعا .. ما عدا الفيكونت دومبريفال . الذي كان يعتبر نفسه أنبل الموجودين . واعرقهم حسبا .

قلب دومبريدال شفتيه باحتقار . وتمتم بلهجة الاستهزاء :
ـ يا الهي .. انهم يريدونني على أن اقاتل هؤلاء الرعاع !! وهذا كثير . اول بكم ان تطالبوني بان الهب ظهوركم بالسياط فافعل ذلك في غير تردد . اما ان تطالبوني بمقاتلتهم ..
فقاطعه دي كادو قائلا :
ـ ليس احب الينا يادومبريدال من ان نراك للهب ظهورهم بالسياط فابحث عن سوط .. وتسلح به .. ودعنا نشهد معجزاتك .
وهنا همست احدى السيدات في اذن سوزان
ـ ما اشجع خطيبك ياسوزان .. ارايت مبلغ اهتمامه بسلامتك وحرصه على حياتك ؟
فاجابتها سوزان ببرود :
ـ انه يقول ويفعل ما يرضي به حرصه على كرامته
فقالت السيدة ساخرة :
ـ ياالهي .. ما اقل حرصه على كرامته .
فعضت سوزان على شفتيها .
كانت قد مضت في الاعوام الاربعة الاخيرة . واكملت انوثتها . واصبحت مخلوقة رشيقة نبيلة الطلعة مشوقة القوام .
اجابت :
ـ ان من المزري بكرامته ان يلوث يديه في معركة كالتي الترجها ابي .
فقالت السيدة ساخرة :
ـ في اعتقادي انه احرص على راسه منه على كرامته .
فاشاحت عنها سوزان بوجهها .. وتركتها وابتعدت
ورغم دفاع سوزان عن خطيبها . فانها لم يشعها الا الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بانه نذل وجبان .
كان ابوها قد دبر ذلك الزواج تدبيرا دون ان يترك لها حق الاختيار فلم تقابل دومبريدال قبل الخطوبة اكثر من مرتين .

وقد اعجبها منظره فقبلته خطيبا ، ولكن لم تتح لها قط فرصة للتحدث اليه .. ولفهم نفسيته وطباعه .. فشعرت في تلك الليلة فقط وبعد ذلك الموقف بانها انخدعت بمظهره .. وان طلعته الجميلة .. وتقاطيعه التي تنم عن نبل وكبرياء وترفع وتكاد توهم أن صاحبها هو خير انموذج للرجولة الكاملة ، انما تحجب نفسا وضيعة .. نفس جبان رعديد يضع سلامته في الموضع الاول قبل كرامته .

فكرت سوزان في هذا بقدر ما سمح لها ذلك الموقف العصيب .. ثم ما لبثت ان تنبهت الى ماهو أجل واخطر حين سمعت دوي الرصاص في فناء القصر . ونقب لاذنيها صياح الغوغاء في الخارج .

صمت النبلاء وحبسوا انفاسهم .

وفجاة ، انعكس على زجاج النوافذ وميض اللهب فصرخت احدى السيدات في ذعر . وسألت المركيزة زوجها :

ـ ماذا حدث ؟

فاجاب المركيز دي بيلكور وهو يصرف باسنانه

ـ انهم اشعلوا النار في الاصطبلات .. واكبر ظني انهم بحاجة الى ضوء يهتدون به في عملهم الجهنمي .

ولمحت الى الباب الزجاجي الذي يؤدي الى المقصورة .

المقصورة التي جلس فيها اصدقاؤه قبل اربعة اعوام وراحوا يمتعون الطرف بمشاهدة لابولاي وهو يضرب بالسياط .

فتح المركيز ذات الباب ، وخرج الى المقصورة .. واطل منها .. فقابله النوار بعاصفة من الصياح والضجيج ، وانطلقت رصاصة اصابت الجدار خلفه وهدمت بعض قطع من الملاط سقطت فوق راسه .

كانت تلك الرصاصة قد انطلقت من بندقية ثائر متحمس .. جلس فوق الباب الكبير .. وراح يوجه الى المركيز من الشتائم والفاظ السباب ما لم يخطر للمركيز ببال قط ان يسمعه .

غير أن دي بيلكور لم ينكمش .. ولم يجزع ، بل انحنى فوق حاجز المقصورة في هدوء .. كان شيئا لم يحدث . وقال

لرجاله الذين يرابطون في فناء القصر :
ـ ماذا تفعلون ؟ هل قلبكم النعاس ؟ اطلقوا النار على هذا الشقي .
واشار الى الثائر الجاثم فوق الباب .
وكان الخدم قد افرغوا بنادقهم .. فاسرع احدهم وحشا بندقيته .. وصوبها . واطلقها . فصرخ الشاب الثائر صرخة هائلة .. وبسط ساعديه .. وهوى من فوق الباب .
وكانت النار تلتهم الاسطبلات التهاما .. على ان المركيز اعتبر هذه النيران خطرا ثانويا بالنسبة الى خطر الثوار الذين احال البصر حوله . وتفقد استحكاماته .. وراح يحسب حسابه .
فكر في انه ليس هناك ـ مع وجود تلك الابواب الضخمة الحصينة ـ ما يمنعه مع زملائه النبلاء من الاشتراك في معركة تنتهي بدحر اولئك الغوغاء .
بيد انه لم يكد يطمئن الى هذا الخاطر . حتى دوى انفجار هائل وزلزل القصر من اساسه .. وانقلع الباب الكبير الذي علق عليه المركيز كل آماله .
ورأى المركيز على ضوء النيران والشعلة الهائلة من النار ينحدر من الباب .. ويملأ الفضاء بصيحات النصر .
ثم رأى خدمه يتقهقرون ويتوارون داخل القصر .. ويطلقون الابواب الصغيرة في وجوه الثائرين في ذات اللحظة التي هم فيها الثائرون باقتحام تلك الابواب .
رأى المركيز كل ذلك .. فتكمش على عقبيه .. ودخل غرفة الاستقبال مسرعا .. وصاح وهو يجرد حسامه :
ـ الى السلم ايها السادة .. الى السلم .
وهرول الرجال نحو السلم .. الذي يبتدئ في القاعة .. ودومبريفال في المؤخرة ورابطوا هناك وفي ايديهم الفؤوس والسيوف والبنادق .. ووقفوا في انتظار النهاية التي شعروا بانها اصبحت قريبة .
ولم يطل انتظارهم .. فقد نجح الثوار في نسف الابواب

صغيرة كي يسمعوا الباب الكبير .. وفشل في سلسلة الانفجارات المتعاقبة ثلاثة من أخلص خدم المركيز .

ودخل الثوار القصر .. وازدحموا عند أسفل السلم .. وقفوا هناك مترددين حائرين ..

على أن موقفهم كان حرجا . فقد انعكست عليهم أضواء النار المشتعلة في الاسطبلات . فكشفتهم لخصومهم بينما كان أولئك الخصوم في الظلام في أعلى السلم .

وقبل أن يلتقط الثوار أنفاسهم ، أطلق عليهم النبلاء النار ، فقتل منهم من قتل ، وجرح منهم من جرح . وولى الباقون الأدبار .

وعندئذ صحك الكونت دي كادو وقال لجاره وهو يشير بأصبعه إلى علية السمرط :

ـ يالهي .. لقد اكتشفوا بعد فوات الوقت أن القصر أمنع مما توهموا .. هل لك في شيء من السمرط ياعزيزي سانسيلامي ؟

غير أن الهدنة لم تكن طويلة كما هي الا دقيقة حتى اقتحم الباب نفر من الثوار يحملون المشاعل وتبعهم آخرون من زملائهم .

ووقف الثوار عند أسفل السلم ، وقد راعهم المنظر البديع الذي رأوه على ضوء المشاعل .

رأوا ما يقرب من الثلاثين نبيلا في ثيابهم الأنيقة .. ولآلئهم الساطعة .. ينتظرونهم في وزالة وهدوء . كأنهم جميعا رجل واحد ثابت ساخر يشعر بقوة مركزه وعظم سلطانه .

وكان لهذا المنظر تأثيره الفعال في نفوس الثوار .. فجمدوا في مكانهم .

ثم تلاشى هذا التأثير في الحال ، عندما أطلق أحد النبلاء لمدفعه وحدا بعض زملائه حذوه .

سقط بعض حملة المشاعل .. ولكن زملاءهم لم يجبنوا .. ولم يتراجعوا ، بل تشجعوا عندما انضم اليهم بعض الرفاق

فاخذوا يصعدون السلم وثبا ، يتقدمهم شاب ضخم الجسم ، رث الثياب ، يدعى « سونستر » .

وقد راى المركيز هذا الشاب ، وعرفه ، وتذكر انه احد الذين اساء اليهم .. واعتدى على اعراضهم .. وادرك انه انما تزعم الثورة لينتقم .

رفع المركيز يده ، وصوب لحدارته نحو « سونستر »

ولاحظ الشاب هذه الحركة ، فضحك ، وصوب لحدارته بدوره وانطلقت الرصاصتان في وقت واحد ، فسقط ساعد المركيز الى جنبه قد هشمته رصاصة الثائر .

واستمر سونستر يرقى السلم ، الحدارة في يساره ، والحسام في يمناه وزملاؤه يتبعونه يزمجرون كالوحوش الضارية .

قال دى كادو وهو يرى الثوار يقتربون :

ـ هنا ينتهي الفصل الاخير من سفر حياتنا

ثم هز راسه واستطرد :

ـ لترى هل يوجد في السفر الآخرة سقوط ؟

ونظر باصابعه مرة اخرى على عقبة السقوط التي كانت له خير رفيق ، ثم رفعها في يده .. والقى بها على راس اول ثائر اقترب منه .

وشمر بعدئذ عن ساعده وجرد سيفه ودرأ به ضربة حسام وجهها اليه احد الثائرين .

قال وهو يجول ويصول ويرد هجمات خصمه :

ـ ايها الحيوان ، هذه اول مرة يتمانق فيها حسامي الطاهر .. مع سيف قذر مثل سيفك .. ولكني ارجو الا تكون هي المرة الاخيرة .

واستمر زحف الثوار وسقط نصف النبلاء الذين يدافعون عن السلم .. وصدوا على المتمردين الطريق باجسامهم بعد ان عجزوا عن سدها بايديهم واسلحتهم .

وظل البالون يصدون الهجوم ببسالة .. وفي طليعتهم « دى كادو » الشيخ الذى استطاع في دقائق معدودة ان يتخلص

من خمسة من الثوار وهي نتيجة ملأته فخرا وردت اليه حماسة الشباب .. فراح يجول ويصول ويضرب بحسامه ذات اليمين وذات اليسار .. فلا يرتد الحسام الا وقد أصاب مقتلا من أحد المهاجمين .

كان أسعد الوجود انه تعجل بالقاء عليه السقوط . فقد احس بعد فقدها انه خسر شيئا كان يستمد منه النشاط .

اما المركيز دى بيلكور فانه راح يقاتل ببسالة فنال اليأس المستميت وقد استله المنية وإلحاحة ان دمه يسيل من الجرح الذى أحدثته الرصاصة فى ساعده الايسر .. وقال أخيرا بحدة دى كادو :

ـ قد انتهى كل شىء ياصديقى العزيز .. انتى أفلدفواى . وسأسقط عما قريب .

يا الهى .. والسيدات .. السيدات .. ماذا سيكون من امرهن .

ولكن حدث فجاة فى تلك اللحظة وقبل ان يتمكن دى كادو من الاجابة . ان ارتفعت فى الفضاء أصوات ناقوس .. حجبت صرخات المهاجمين والمدافعين على السواء فوجموا جميعا .. وكفوا عن القتال . وارهفوا آذانهم .

كانت تلك الاصوات .. هى أنغام موسيقى عسكرية كانت تنظم خطوات الجنود النظاميين .. فتساءل القوم بين ثقلاء ورعاع :

ـ ما هذا ؟ من القادم ؟

وسمعوا وقع خطوات كثيرة تقترب ..

كانت حماستهم جميعا الناء المعركة قد صرفت حواسهم عن سماع انغام الموسيقى . ووقع خطوات القادمين .. فلم يلتفتوا اليها حتى دوت دقات الطبول بباب القصر .

وكانت بلية من الرعاع قد تخللت فى فناء القصر .. فارتفعت صيحاتهم :

ـ الى السلاح .. الى السلاح أيها الرفاق .

وسمع الثوار صيحات زملائهم .. فارتدوا على اعقابهم
ورتبوا فوق جثث القتلى من رفاقهم .. وجلوا عن الـ
تاركين وراءهم قبضة من النبلاء .. المنطخى الثياب بالدماء
ينظر بعضهم الى بعض . ويتساءلون من تلك المعجزة ال
كتبت لهم بها النجاة .

- ٦ -
الثائر

لم تكن في الامر معجزة .. كل ماهنالك ان الصدفه وحد
شاءت ان تصل فرقة من الجيش الفرنسي الى قصر بيلكور ف
الوقت المناسب لانقاذ أهل القصر من مصير لا يغبطهم عليه
احد .

والواقع .. ان اشاعة عن اعتزام الفرنساه اقتحام قصر بيلكو
في تلك الليلة تراءت الى (اميان) .. ووصلت الى اذن ثائر
من نواب الشعب كانت قد أنيطت به مهمة مرافقة فيلق م
الجيش الفرنسي والانضمام به الى جيش الجنرال ديموريه الذ
كان واقتئذ في بلجيكا .

والقى ان فكر هذا الثائر في أن يقتحم بنفسه قصر د
بيلكور . وقرر ألا يدع الفرنساه يسبقونه الى ذلك . فاصد
أمره الى أحد الضباط بالانطلاق على رأس مائتي جندي للدفا
عن القصر . وانقاذه من الفرنساه والانتظار هناك حتى يلحق به
وذلك ماحدث .. فقد وصل الضابط وجنوده في الوقت
المناسب .. فكان وصوله اشبه بمعجزة أرادتها العناية الالهية
لانقاذ النبلاء .

على ان الفرنساه كانوا قد تسلوا بلذة الانتصار وطعم الدماء
فصار مستحيلا ان يستسلموا لكائن من كان بان يفسد عليهم هذا
الانتصار .. ولذلك لم يزل شغلهم الشاغل محل .. وارتسمت في
وجوه الجنود حتى تتهيأ لهم لياقتهم .

ولم يتركهم ضابط الفرقة طويلا في شك من نواياه ، وسلم أمرا الى رجاله ، فانتظموا جبهة واحدة .. وواصلوا عل استعداد للقتال .

وتحول الضابط الى الفوج وصاح بهم :

ـ أيها المواطنون .. باسم الجمهورية الفرنسية اطلب اليكم ان تفسحوا لنا السبيل لكي نقوم بالمهمة التي أنيطت بنا .

فأجابه سوستر العملاق :

ـ أيها الضابط المواطن .. نحن نريد ان نعرف بأي حق تقف في وجوه الوطنيين الاصفياء وهم يعملون على انقاذ فرنسا ومن بقي في ارضها من حثالة البلاء !

فاجاب الضابط مقتضبا :

لقد ذكرت حقي حين وجهت اليكم الكلام باسم الجمهورية الفرنسية ..

فقال سوستر وهو يلوح ببنادقه نحو اتباعه من الرجال والنساء :

ـ نحن الجمهورية .. نحن الامة .. نحن الشعب الفرنسي نفسه فباسمنا نطلب اليك أيها الضابط المواطن ان تنسحب وتتركنا في سلام .

واثار « سوستر » بهذه العبارات موضوعا جديرا بالبحث والمناقشة .. ولكن الضابط لم يكن من الساسة . ولم يكن من الخطباء . واهم من ذلك كله انه لم يكن في بيتان ينسحب بهن كتفه وكان جوابه انه لتحول الى رجاله ، وصاح بلهجة الامر :

ـ استعدوا ..

فقال قائل بين الرعاع

ـ أيها الضابط المواطن . انت قادم على اصدقاء لا يغتفر .. اذا اريقت دماء فعلى راسك وحدك تسقط .

فسأل الضابط ببرود .

ـ الا تريدون الانسحاب ؟!

فصاح سونسنر وهو يلوح بسيفه منجما زملاءه :
ـ الى امام ايها الرفاق .. ليسقط هؤلاء الخونة الذين يدسون ثياب الجندية ..
وركب نحو الجنود .. وتبعه نحو مائة من رفاقه الاقوياء وهم يصيحون ويزأرون .
فصاح الضابط بجنوده :
ـ اطلقوا الرصاص .
فدوى في الفضاء صوت كاصف الرعد .. وخرج من بنادق الصف الامامي خمسون لسانا من اللهب مزقت الظلام فوق رؤوس الغوغاء .
وجمد الغوغاء في اماكنهم .. وترددوا لحظة .. ثم فروا مذعورين .
وكان اول مافعله الضابط بعد ذلك انه امر بعض رجاله بمكافحة النيران المشتعلة بالاسطبلات .. وقد تم لهم ذلك بعد نضال استغرق ساعتين .
ودخل الضابط القصر .. ورأى النبلاء العشرة الذين يحرسون السلم . فقصد الى حيث كان المركيز دى بيلكور .. ودار بينهما حديث قصير ..
قال الضابط للمركيز باختصار : انه جاء نزولا على ارادة نائب من نواب الشعب . اتصل به نبأ اعتزام الغوغاء اقتحام قصر بيلكور .
وكان من الطبيعى ان يرتاب المركيز في بيان ذلك النائب . وفي العوامل التي حفزته للقيام بهذا العمل الغير الطبيعى .
ذلك انه كان من المألوف ان بعض رجال فرنسا قد يدينه بعضهم من الفظائع والجرائم التي تصيب النبلاء في ارواحهم وممتلكاتهم .. فما الذى دفع ذلك النائب الى لجنة آل بيلكور والظلاعهم من ايدى الغوغاء ؟!
اراد أن يعرف المزيد عن هذا النائب .. ولكن الضابط كان قليل الكلام .. وهكذا تضاعفت مخاوف البلاء .. وقضوا

اسلحتهم في قلق وذعر .. ولقد حدثتهم نفوسهم بانهم انما افلتوا من ورطة ليلقى بهم في اشد منها
كان عدد البلاء قبل المعركة ثلاثين .. فسلم منهم عشرة .. وقتل ستة . وجرح الباقون .
وكان اكثر الجميع همومًا واشدهم ضغينة هو الشيخ دى كادو ..

عثر هذا النبيل الطيب القلب بعلبة السموط التى كان يعتبرها اثمن شيء في الوجود فاطمأنت نفسه .. وراح يتنقل بين الجرحى . فيواسى هذا بكلمة . ويضحك ذاك بدعابة . ويشجع كل من يقابله باحاديثه الهادئة .. وصوته الطروب.
اما السيدات .. فلم يكن بينهن انيت جنالا من الآلسة دى بيلكور ووالدتها السليطة اللسان .
ولم لكن سوزان قد اجتمعت بخطيبها منذ بداية المعركة .. ولكن قيل لها انه خرج من المعمعة سليما معافى .. وانه في شغل بالعناية بفريق له من البلاء اصيب في راسه بجرح خطير .

وبعد بزوغ الشمس .. جاء دومينيكال للاستفسار عن خطيبته .. ووقف الاثنان امام احدى الخيام .. وراحا يرقبان الجنود المرابطين امام المعسكر .
وفجاة .. حمل سهم الصباح الهادئ الى اذانهما وقع حوافر جواد يقترب مسرعًا .. ... اصطدما على فارس منتشح بالسواد يدنو من المعسكر .
هتف دومينيكال :
ـ انظرى .. اكبر ظني ان هذا القادم هو الرجل العظيم الذى ننتظره .. هو نائب الرعاع في تلك المهزلة التى يسودها مجلس الشعب .
سنعلم الآن ماذا خبات لنا الاقدار على يد هذا السائس العظيم ..
فسأله :

ـ ولكن ماذا تراهم يصنعون بنا ؟

فاجاب :

ـ العادة المألوفة الآن انهم يرسلون امثالنا الى باريس . وهناك يمثلون معنا دورا يسمونه بانه محاكمة .. ثم يقتلون بنا الى الجلاد

فتنهدت . وقالت :

ـ من يدري .. ربما وجدنا هذا النائب ارحم بنا من سواه

فقال الفيكونت متهكما :

ـ ارحم ؟ يا الهي .. ان السور المفترسة اجدر بان توصف بالرحمة من هؤلاء الاوغاد الاذلال .. ولو كان ابوك حكيما لامر البقية الباقية منها بمهاجمة الجنود .. والاستشهاد على اسنة الحراب .. فذلك ارحم من المصير الذي ينتظر امثالنا على ايدي مجلس الشعب .

وفي هذه الاثناء . كان الفارس يترجل عن ظهر جواده في فناء القصر .

وبعد دقيقة او دقيقتين سمع القوم وقع خطواته وهو يصعد درجات السلم ..

ثم فتح احد الجنود الباب وقال معلنا للقوم الزائر .

ـ المواطن لابولاي . نائب مجلس الشعب . ورسول المجلس الى جيش الجنرال ديموريه .

فقال دمبريفال ساخرا

ـ هو ذا احد النواب في حكومة مبدؤها المساواة . يعلن قدومه في عظمة وابهة كما كان يعلن قدوم احد سفراء جلالة الملك الفتيل .

ولكن احدا لم يعر كلامه اهتماما .. ولاحظ دومبريفال في الحال الانقلاب الذي طرأ على سحنة سوزان وابيها .

فأما الصناة فقد انسحت حدقتاها ·· وامتلع لونها وتلحت شفتها في دهشة ··

وأما المركيز فسقط فكه الاسفل · وارتسمت الدهشة بكل معانيها في نظراته وعلى وجهه ·

وأما الليكونت دى بيكور · فقد امتزجت دهشته بشيء من الذعر ·

حول دومبريفال بصره الى الباب ·· وصعد بعينيه الرجلين اللذين دخلا الغرفة

كان احدهما هو « الكابتن جوست » ·· قائد فرقة الجنود التي انقذت القصر من أيدى الغوغاء ··

أما زميله فكان رجلا طويل القامة شاحب اللون ·· قاسى الخطرات فما بطيئته ·· واما الان عيناه استقرتا في تلك اللحظة على وجه الرجل الذى الفيه بالبلاط منذ اربعة أعوام ·

قريب النائب « لابولاى » قليلا بعتبة الباب · كانما لذ له ان يملأ عينيه من مظاهر الدهشة التي اثارها قدومه ··

لم يكن ثمة شك في أمره ·· فهو لابولاى الذى عرفه القوم منذ اربعة أعوام · كارون لابولاى بعينه مع تبدل بسيط ·· فقد زالت عن وجهه دلائل البلاطة والسذاجة ·· وحل محلها طابع الحياة الشاقة النشيطة التي كان يحياها في المدة الاخيرة · فاصبح يبدو أكبر سنا مما هو حقيقة ·

كذلك زالت عن وجهه تلك الكآبة الشعرية التي كانت تمتاز بها ملامحه منذ اربعة أعوام · وافسحت السبيل لدلائل القوة والعزم والرزانة ·

وعلى الرغم من ان لابولاى كان لايزال مجهولا من الاغلبية الساحقة في فرنسا ·· فان زعماء الثورة كانوا يحلونه من اعتبارهم محلا رفيعا ·· ويرون فيه قوة يمكن الاعتماد عليها في المستقبل القريب ·

كان بنتو بحماية روبسبير وصداقته ·· وهما حماية وصداقة كانتا في ذلك العهد تكفلان لمن يستمتع بهما ان يصبح

شخصية عزيزة الجانب لها احبتها .. ولها خطرها

كان لابولاى فى ذلك اليوم يرتدى ثوبا اسود ، ويتمنطق بنطاق مثلث الالوان كراية الثورة .

ولما رفع قبعته .. وكشف عن رأسه .. لاح شعره الاسود الفاحم وقد صفف بعناية .. كما كان يصفف فيما مضى .

تقدم فى الفرقة ببطء .. وانتقلت عيناه من المركيز الى سوزان .. وعندئذ لانت بعض الصلابة التى تملأ عينيه .

وجد انها تبدلت اكثر مما تبدل . فقد استحالت الفتاة الصاحكة الطروب التى سخرت من غرامه منذ اربعة اعوام لمادة حسناء نبيلة فى حسنها كالملكات .

كان يظن ان غرامه بها قد خمد اواره .. ومرت به اوقات كان يبتسم فيها كلما تذكر هذا الغرام .. كما يبتسم الانسان عادة عندما يذكر طيشه فى عهد الشباب . ولكنه ما كاد يراها الآن وقد طرأ عليها هذا التبدل العجيب حتى لانت عريكته . وضعفت العزيمة التى ساقته فى ذلك اليوم الى بيلكور .

ثم تحولت نظراته .. واستقرت عيناه لحظة على وجه الفيكونت دومبريقال .. وهو مرفوع الرأس .. شامخ بانفه

ورقصت عيناه بعد ذلك على وجه دى كادو وتذكر كيف حاول هذا النبيل العجوز الطيب القلب ان يضع حدا لآلامه وهو يضرب بالسياط .

وعادت عيناه فاستقرتا على وجه المركيز الذى كان يرمقه بمزيج من الدهشة والاحتقار .

ولكنه تجنب النظر الى وجه الفيكونت دى بيلكور الذى كان يتلقى العلم على يديه فى وقت ما .

واخيرا تكلم لابولاى بصوت رنان موجها كلامه الى المركيز :

ـ لعلك ايها المواطن بيلكور ـ بعد اذ رأيت النالب الذى بعث بفرقة الجنود لانقاذك وانقاذ قصرك من ايدى الغوغاء ـ قد ادركت الغرض الذى حدا بى لان اتولاك بحماية لا تستحقها ولست اهلا لها .

فاجاب المركيز باحتقار وبرود :
ـ لقد جلب الزمن كثيرا من التغييرات المحزنة .. ولكنه لم يحسرنا بعد الى الدرجة التى تضطرنا الى التفكير فى نوايا الرعاع .
فاحمر وجه كاروين .. وقال بلهجة مرة :
ـ صدقت .. فانت لم تتغير كثيرا .. انك من اولئك الذين لا يتعلمون .. والعلة هنا .
واشار الى رأسه واستطرد :
ـ وستبقى هذه العلة حتى نجتثها مع الرأس
وصمت لحظة ثم ارتد :
ـ ولكن .. لنتكلم الآن فيما جئت بصدده .. حدث منذ اربعة اعوام ايها المواطن بيلكور انك مزقت وجهى بسوطك .. وعندما طلبت ثأرى صددتنى بخصمك .. ولن اعدد الآن ضروب الصولة التى ارتكبتها فى ذلك اليوم .. ولكنى سأقصر فقط على الاهانة الأولى .
فصاح المركيز :
ـ تكلم واوجز يا سيدى .. وسأقام لك من القوة ما يرغمها على الاصغاء اليك .. فارجو ان تتكرم باختصار الموقف ما امكن .
فقال لابولاى ببرود .
ـ سأوجز ما استطعت .. اننى جئت اليوم ايها المواطن بيلكور فى طلب الثأر الذى انكرته على منذ اربعة اعوام .
فصاح المركيز : الثأر منى ؟
فاجاب كاروين :
ـ نعم .. وسأثأر منك ـ كما قلت منذ اربعة اعوام ـ فى شخص ولدك الفيكونت .
الك رجل متقدم فى السن ايها المواطن .. وانا لا احرد سيفى فى وجوه الشيوخ .
فصاح المركيز
ـ ما زال لى من الشباب ما يكفى لتمزيقك ايها الكلب ..

لو التي ارتضيت النزول بكرامتي وشرفي ان مبارزتك ·
ولحول الى دومبريفال كأنه يلتمس منه العون ·· وضحك باحتقار وسخرية ··
فتمتم دومبريفال : ضعه فحه ·
اما سوزان فقد ازداد شحوب وجنتيها ·
لم يكن عندها شك في ان الموقف سينتهي باسوأ النتائج بالنسبة الى ابيها او اخيها ··
ـ قال كارون بتلك اللهجة المثلجة :
ـ ايها المواطن بيلكور ·· انك مهمت غرضي ·· وانت كذلك ايها الفيكونت ··
فتمتم الفيكونت دي بيلكور
ـ اما انا ··
ولكن المركيز قاطع ولده بان صاح :
ـ اصمت يا ارمان ·
ثم تحول الى لابولاى وقال :
ـ اصغ الى ايها المواطن ·· او ايها النائب ·· او ايها الوغد ·· انك جئت الى بيلكور بغير دعوى ·· لأني وولدي نحرص على شرفنا ان يهان ونضن بكرامتنا ان تخدش مسازلة مخلوق مثلك ·
واذا كنت قد قلت ايدي الغرغاء بالأمس لتحقيق غرضك هذا ، فاعلم اذن انك اخطأت ·· وانه كان احرى بك ان تدعهم يتمون عملهم المقيت ·
فسأل لابولاى وهو لا يزال يحتفظ بهدوئه رغم اهانات المركيز :
ـ أهذه كلمتك الأخيرة ··
ـ هذه كلمتي الأخيرة ياسيدي ·
فقال لابولاى :
ـ هناك وسائل كثيرة للأخذ بالثأر ايها المواطن بيلكور ·· فاذا لم تر تلك الوسيلة التي سألجأ اليها الآن بعد اذ رفضت التراجع فالذنب في ذلك ذنبك ·

ـ نحول الى الجندى الواقف بالباب ، وقال :
ـ ايها الجندى المواطن .. جئنى بصولى .
احدثت هذه العبارة هزة بين النبلاء ، واطلع وجه المركيز ،
وقال دومبريفال :
ـ الى ابعد مدى يصل اليه طرف السوط .
وجاب لابولاى ناسما :
ـ الى ابعد مدى يصل اليه طرف السوط .
وتناول السوط من يد الجندى واقترب من المركيز وهو يحرك السوط فى قبضته وعندئذ وثب دومبريفال من مكانه .. ووقف امامه .. وصاح :
ـ انك لن تفعل هذا ..
فقال لابولاى وهو يقلب شفته :
ـ لن افعل هذا ؟
ورمى دومبريفال بنظرة احتقار ساخطة ثم استطرد :
ـ من الخير لك ان تبتعد عن طريقى .
فتراجع دومبريفال وقد هالته نظرة الاحتقار والتهديد التى ارتسمت فى عينى لابولاى .
بيد انه لم يكد يفعل ذلك حتى حل الفيكونت دى بيلكور محله ، فوقف فى وجه لابولاى وهو يقول :
ـ يامسيو لابولاى .. انى على استعداد لمنازلتك .
واختار المركيز اهون الشرين .. ولم يجد الجرأة على الاعتراض .
أما لابولاى فانه هتف :
ـ آه .. لقد كنت واثقا من انكم ستعدلون عن رايكم .. سانتظرك فى الحديقة ايها المواطن .. وارجو ان تلحق بى قبل انقضاء خمس دقائق .
فاجاب الفيكونت الشاب : ان ادعك لتنتظرنى طويلا ايها السيد .
فاحنى لابولاى قامته باحترام .. وانصرف برفقة الكابتن دوست .

وما كاد الباب يغلق وراءها حتى هتفت المركيزة وهي تحرك المروحة في يدها بسرعة :

ـ يا الهي ·· افتحوا النوافذ ·· انني اكاد اختنق ·· هل أخبث ريح هؤلاء الناس ·· انني مخلوقة حادلة وديعة ايها السادة · ولكني اقسم انه لو استمر يدعوكم دون انقابكم بتلك الكلمة السيئة ·· كلمة (مواطن) · اذن لما ترددت في ان اصفعه بيدي ·

• فضحك بعضهم ·· ولكن سوزان لم تكن من اولئك البعض ·

واجالت الفتاة الطرف بين الموجودين · واستقر بصرها على وجه أخيها المشع وجسمه النحيل · وارتسمت في عينيها نظرة كتلك التي تنظر بها الى شخص عزيز مات ·

ذلك لأنها رأت فيه انسانا يسير نحو موت محقق ·

ـ ٧ ـ

الدين

كان في شرقي القصر ميدان فسيح مهد خصيصا للتمرن على اللعب بالسيف · وكان لابولاى يعلم بأمر هذا الميدان ·· فقد كان في خدمة المركيز ·· فقصد اليه برفقة الكابتن جوست · ووقفا هناك في انتظار الفكونت ·

وانقضت الدقائق الخمس وهما في الانتظار · ثم انقضت خمس دقائق اخرى ثالثة ولما يات احد · فهم الكابتن جوست بالعودة الى القصر للاستفسار عن سبب الابطاء ·

ولكن حدث في هذه اللحظة انهما سمعا وقع اقدام تقترب · ثم لاحظا ان صوت الأقدام يقترن بحفيف ثوب من الحرير · وما هي الا لحظة حتى برزت الآنسة دي بيلكور ·

نظر اليها الرجلان في دهشة · ولكنها قالت بثبات :

ـ هل استطيع التحدث اليك على انفراد يامستر لابولاى ؟

وحولت عينيها نحو الكابتن جوست ·

فانحنى لابولاى قائلا باحترام وقال وهو يرفع قبعته عن راسه :

- انني في خدمتك ايتها المواطنة
ثم التفت الى الضابط وقال :
- هل تسمح لنا بالانفراد ياجوست ؟
فاجاب الضابط :
- سأنتظرك في فناء القصر ياسيدي النائب
وادى التحية وانصرف ٠
وساد بعد انصرافه صمت عميق ٠٠ وشعرت سوزان فجاة بشيء من الحرج ٠٠ فحولت عينيها ٠٠ وتجنبت النظر الى وجه لابولاي الذي وقف صامتا عارى الراس ونسيم الصباح يعبث بخصلة شعر متمردة سقطت على جبينه
واخيرا قالت الفتاة بصوت مضطرب :
- سيدي ٠٠ انني جئت لاتوسط في الأمر ٠٠
فسرت على شفتي لابولاي الرقيقتين ابتسامة خفيفة ٠٠ واجاب متهكما :
- يا الهي ٠٠ هل انحدر نبلاء فرنسا الى هذا الدرك فيوسطوا لساعهم لانقاذ حياة رجالهم ؟
فاحمرت وجنتاها ٠٠
انتابها أن يوجه هذه الاهانة القاذعة الى قومها وطبقتها ، واخرجها الغضب من جمودها فقالت :
- ان اهانة الكواكب الأقلة ياسيدي هو امر لا يستغرب من اهل العهد الجديد الذي تمثله ٠٠ ومهما يكن من امر فانني من المحتم علينا أن نتقبل هذه الاهانات راضخين كما نتقبل شتائر نحن في هذا العهد الذي انقلبت فيه أوضاع الأمور ٠ ٠
فاجاب لابولاي ببرود ولقد ثارت ثائرته بدوره :
- يخيل الى من الغباء الذي رايته ايتها المواطنة انكم تتقبلون هذه الامور وانتم راكعون في طلب الرحمة ٠
فصاحت في غضب وهي تنظر في عينيه بحدة :
- سيدي ٠٠ اذا اصررت على التحدث بهذا الأسلوب المهين فسأضطر الى الانصراف ٠
فضحك لابولاي ٠ ووضع قبعته على راسه ٠٠

كان جمالها الرائع عندما أقبلت بغتة قد اثر في نفسه تأثيرا عميقا ..

ولكن هذا التأثير زال فجاة .. ولما وضع القيمة على رأسه تبدل شعوره وسلوكه كل التبدل ..

سأل :

ـ هل أنا الذي التمست هذه المقابلة ؟! انني في انتظار اخيك . ولكن هل تتوهمين أيتها المواطنة أن صبري لا حد له لقد وعدني اخوك بان يلحق بي الى هنا . وكان من واجبه فخر قومك دائما الهم مهما تورطوا في مختلف الآثام لا يخلفون الوعد قط . فهل فقدتم هذه الفضيلة الاخيرة التي كنتم تستترون وراءها سائر رذائلكم وآثامكم ؟ وهل قر أخوك الى الغاية بينما جئت للتمسين على حياته التعسة ؟

ما أحقركم أيها القوم .. انكم أثرتم كراهيتي في الماضي بما اتيتم من مظالم اما الآن فانكم تثيرون احتقاري بجبنكم ونذالتكم .

فقاطعته بان همست بلهجة الاحتجاج :

ـ سيدي ..

ولكنه لم يكن قد فرغ من كلامه .. وقال كل ما عنده .

فاستطرد وقد انعكست على وجنتيه نيران الغضب التي تتلظى في صدره :

ـ أيتها المواطنة .. ان لي عليكم دينا يجب أن اتقاضاه . وساتقاضاه كاملا .. فالوساطة لا تجدي معي .. لأنني لا استطيع أن انسى

ابعثي الى باخيك ليقابلني هنا قبل انقضاء خمس دقائق كما يقابل الرجل رجلا .

ستكون له فرصة الدفاع عن نفسه . وفرصة القتل اذا استطاع .

اما اذا تخلف عن مقابلتي فالويل لكل انسان في قصر بياكور التي اوضحت لك الآن كل ما عنيت أيتها المواطنة

وقد نطق بالعبارة الأخيرة بلهجة من يريد أن يقول لمحدثه

اصرف لقد انتهى الحديث » .
ولكن سوزان تجاهلت هذا المعنى . وقالت له بمثل حدته
ـ انت لتتكلم عن دين تصر على ان تتقاضاه .. تتكلم عن
ى انتقام تريد تصفيته بمثل نخى البرىء .. ولكن الا تدين
ـ ت بشىء ؟
ـسأل كى دهشة :
ـ انا ادين لك ؟ يا الهى . انا لا اعلم ان لك على دينا المهم
الا اذا كان دين الاحتقار
واجابته بلهجة حزينة .
ـ نعم . انك مثل غيرك . فانتم اغنياء الذاكرة فيما يتصل
بالم الذى يصيبكم .. ولكن ما اسرع ما تنسون المعروف
علم الان ياسيدى .. انه لولاى ما كنت انت الآن حيا
ترزق ..
وما كان لك الآن صوت تطلب به الانتقام
هل سمعت ياسيدى كيف .
فقاطعها بقوله :
ـ كلا . انني اذكر جيدا كيف حاولت ان تسمعهم من
الاستمرار فى ضربى بالسياط .. ولكنك فعلت بهذه المحاولة
هذه لولت الوقت .. وكان فى مقدورك ان تقومى بها قبل ذلك
.. لأنك شهدت من المقصورة كل مرحلة من مراحل تعذيبى
وادلالى
شهدت عذابى وآلامى .. ولم تتحرك فى قلبك عاطفة الرحمة
الا بعد ان اعلنوا موتى .
فرمقته بنظرة متسائلة . كانها تريد ان تتغلغل فى اعماقه
لترى مبلغ ايمانه بما يقول .
قالت مرددة عبارته الأخيرة :
ـ .. الا بعد ان اعلنوا موتك !! ولكن من الذى عمل على
اتهامهم بانك مت ؟ انا ياسيدى لابولاى
انهم اكتشفوا وهم يقطعون وثاقك انك لم تمت . ولولا اننى
رشوتهم لكتمان الأمر ورشوتهم لكى ينقلوك الى بيت دوهامل .

لما لرددوا في احاطة أبي بالحقيقة . ولانتهى الأمر بالاجهاز عليك .

فحملق لابولاي فيها بحدة .. وارتسمت في عينيه نظرة مضطربة . نظرة من يريد التشاص حقيقة استعصت عليه . او ذكرى تكاد تفلت من ذهنه .

وغمغم قائلا :

ـ يا الهي .. يخيل الى انني سمعت شيئا كهذا فيما يشبه الحلم .. كان ذلك ..

وصمت .. وتفضن جبينه لحظة .. ثم اسطت اسارير وجهه وهتف :

ـ آه .. نعم تذكرت الآن .. كان ذلك في بيت دوهامل . وكنت في حالة الرب الى الاعماء .. فسمعت أحد الرجلين يقول لدوهامل انك نقدته مبلغا من المال لكي يحملني الى بيت صديقي ويكتم الأمر .

فسألته في قليل من الازدراء .

ـ وهل نسيت ذلك ؟!

فاجاب :

ـ كلا .. لم انسى .. لأنه لم يكن هناك شيء يستحق ان اتذكره . كنت اعتقد دائما انني سمعت تلك الكلمات في حلم . ولم اعلم قط انها الحقيقة ..

ـ اذن كيف عثلت فرارك ؟ !

ـ كنت دائما اتوهم انهم حسبوني ميتا وتخلصوا من جثتي .

وساد صمت قصير . ثم قالت سوزان :

ـ والآن .. وقد علمت الحقيقة ياسيدي ..

ولم تتم عبارتها .. بل بسطت يديها في توسل واستعطاف .

• • •

اصفر لونه .. وانقلبت سحنته ..

كان حتى تلك اللحظة قد بذل اقصى جهوده للتخلص من سلطانها القوي .. اما الآن .. بعد اذ تضاعف هذا السلطان

يعمل ما لها من دين في عنقه .. فانه بدا يشعر بارادته تخذله .. وبقوته تخونه ..
ذابت صلابته كما يذوب الثلج تحت لسعة الشمس المحرقة .
فامسك بيديها المبسوطتين .. واجتذبها نحوه خطوة ..
وهكذا اخطأ .. واضاع نفسه .
كان شأنه شأن الاقوياء امثاله ممن يفقدون قوتهم لمجرد لمسة من يد امرأة ..
كانت حياته في باريس في الاعوام الاربعة الماضية حياة صارمة .. تجاهل فيها جميع النساء ولم يلم لهن وزنا ..
ولكن كيف يمكن ان يتجاهل الآن هذه المرأة التي لم تكن على جانب عظيم من الجمال والفتنة فحسب .. بل كانت كذلك المخلوقة الوحيدة التي تطيلها في صباه ممثلة للأنوثة الكاملة الناضجة .. المخلوقة التي ظلت تسيطر على قلبه رغم انفه .. ودون علمه .. وبرغم كل ما حدث .
كانت لمستها .. وكان وجودها على مقربة منه .. والرائحة العطرية الخفيفة التي تفوح من جسدها وثيابها .. ونظرة الاستعطاف والتوسل التي تنبعث من عينيها الزرقاوين .. كان لذلك كله تأثيره الساحر الذي لا يقاوم ..
صاح : هذا لا يستطيع ان اقول لك ما أسبابه .
وخيل اليه فجأة .. ان الاعوام الاربعة الماضية قد طويت من حساب الزمن . وانه لا يزال يتحدث اليها بما قرب من الخدير وبهم بان يبوح لها بغرامه ..
حتى الكلمات التي تعلمها من قاموس الثورة بدت في تلك اللحظة قديمة او نسي كلمة مواطنة وعاد يدعوها آنسة، كما اعتاد ان يدعوها قبل اربعة اعوام .
قالت له صارعة بصوت رقيق .
ـ تعالي هادئا تستطيع ان تقول لي : قل لي ان في مقدورك ان تكون كريما .. هل انك تصحح الدين الذي تدين لي به فوق الاهانة التي لحقتك ؟ .
فأجابها وهو ما يزال يناضل نفسه .

ـ انك لا تدركين عظم التضحية التي تطلبينها ، اني قضيت اربعة اعوام في انتظار هذه الساعة .. والآن ..

لهمست بصوت عجيب اكسب ابسط عباراتها قوة الحجة المكتملة :

ـ انه اخي .

فاطرق برأسه واجاب :

ـ حسنا .. انني لأجلك يا آنسة .. ووفاء لدين لك .. سأرحل كما جئت .. ولن اقابل المركيز بعد الآن .. ولكن قولي له بلساني انه اذا كان يقيم لحياته اي وزن .. فعليه ان ينقض عن حذائه تراب فرنسا بأسرع ما يمكن ..

ان الفلاحين الذين ثاروا مرة .. قد يثورون مرة اخرى فلا يجدني بقربه لحمايته من بطشهم .

قولي له أن يرحل في الحال .

ـ سيدي .. انني شاكرة لك .. ولن انسى صنيعك ما حييت .

ليس في استطاعتي ان اقول لك اكثر من ذلك . فليتول الله عني جزاءك .. وليتولاك برعايته . وداعا يا سيدي .

فاستمر ينظر اليها لحظة .. وداعا لا تزالان بين يديه ، قال اخيرا : وداعا يا آنسة .

ورفع يدها ببطء .. لكي لجتذبها اذا شاءت .

ولكنها لم تجتذبها . فانحنى .. وقبل يدها باحترام . وقال :

ـ الهي في حراسة الله يا آنسة ..

وترك يدها .. وتراجع خطوة .. ورفع قبعته . فاحنت الفتاة راسها .. وسارت في الطريق الى القصر .

ولم تنقض عشر دقائق . حتى كانت الطبول تقرع .. والجنود ينصرفون من القصر في صف منتظم .. والكابس جلست في طليعتهم .. والقائد لابولاى في المؤخرة .

كان لابولاى ممتطيا بوشاحه الأسود الكبير .. وقد اطرق برأسه وانصرف الى التفكير .

- ٨ -

جرحى الحرب

نشأ خلاف بين مجلس الشعب والجنرال ديموريه الذى كان من ابرع القواد واخلصهم للجمهورية .. ذلك لان مجلس الشعب امر باعتقال اثنين من الضباط الذين كان يعتمد عليهم ديموريه كل الاعتماد .. ثم لأن هذا المجلس تعمد مضايقة القائد العظيم فى مناسبات شتى .. ولم يكن ديموريه من المقهورين بسهم الصبر .. وهكذا تشجر الخلاف ودب الجفاء بينه وبين مجلس الشعب .

فلما بدأت الحرب بين الجمهورية وهولندا .. احس زعماء الثورة فجأة بخطئهم .. وشعروا بحاجتهم الى القائد العظيم الذى اضطهدوه . فقرروا - رغم معارضة مارا وغيره من اعداء ديموريه - ان يسعوا لارضاء هذا القائد العظيم الذى لا يستطيعون الاستغناء عن خدماته .

وكانت المهمة التى نيطت بالمناديب لابولاى .. هى السعى لاصلاح ذات البين .. والوصول مع ديموريه الى حالة من التفاهم تساعد على توحيد الصفوف فى وجوه الاعداء ..

وقد اجتمع لابولاى بالجنرال فى (انتويرب) . واظهر فى حديثه معه وفى الطريقة التى عرض بها التراجعات مجلس الشعب من اللباقة والبراعة ما توج مهمته بالنجاح .. وكانت النتيجة ان ديموريه بدأ زحفه على هولندا وهو آمن مطمئن . فقد اجابه مجلس الشعب الى مطالبه . واطلق سراح الضابطين .. وردهما الى منصبيهما فى الجيش .. ووافق على خطة الهجوم التى وضعها .. ووعده بجميع الامدادات التى طلبها ..

واغتبط لابولاى بنجاحه فى مهمته الخطيرة .. وعاد ادراجه يرافقه ستة من الجنود .. فاجتازوا الاراضى البلجيكية التى

خربتها الحرب • وقصدوا ليلتهم الاولى في مدينـــة (مولز) واشرفوا في اليوم التالي على حدود فرنسا ••

وعندما اقتربوا من قرية (بوارفير) • خطر لهم ان يعرجوا عليها لتناول طعام الغداء •

اخترقوا تلك القرية •• واشرفوا فيها على حانة يقال لهـــا حانة النسر •• وهناك رأى لابولاى منظرا غير مألوف •

وقع بصره في حقل مغطى بالعشب يتراءى أمام الحانة على طائفة من الجياد بلهون بقفف ثلاثة او اربعة من العلفة للفنايل •

اوقف لابولاى جواده •• وراح يرقب اولئك الجنـــود •• ويعجب لهم كيف امكن ان يكونوا في تلك البقعة النائية عن مقر الجيش ••

كان يبدو على ثلاثة منهم انهم اصيبوا حديثا •• بجروح •

كان احدهم معصوب الساعد • •والثاني يعرج ويتوكأ على عصا • والثالث معصوب الراس ••

على أن شيئا من ذلك لم يلفت نظر لابولاى ويثير فضوله • كما لفت نظره وأثار فضوله غرابة الثياب التي يرتديها اولئك الجنـــود

كان الجندي المعصوب الساعد يرتدي معطفا ابيضا مزركشـــا بالحرير الاصفر •• يتناقض كل التناقض مع حطام المـــزق وقبعته القلوة •

وكان الجندي الاعرج يتوكأ على عصا ذات مقبض من ذهب • ويزين أصابعه بخواتم مرصعة ••

اما الجندي المعصوب الراس •• فكان يضع فوق رأسه الحريح قبعة انيقة مثلثة الجوانب •• تزينها اشرطة ذهبية •

قضى لابولاى بعض الوقت في مراقبة اولئك الجنود • فلفت ذلك انظارهم •• وكفوا عن اللعب بالفنايل الفارهة ••

ولاحظ لابولاى ان نظراتهم اليه تنم عن شيء من القلق •

أومأ الى الجندي المعصوب الساعد أن يقترب فتردد الجندي قليلا ثم اقترب منه بخطوات متثاقلة •

سأله النائب بحدة :
ـ بحق السماء من انتم .. وماذا تصنعون هنا ؟!
فأجابه الجندي .
ـ نحن الجرحى من جنود الجنرال ديسوريه .
ـ ولكن ماذا تصنعون هنا في (بوزافير) ؟
ـ نحن نقيم في المستشفى أيها المواطن .
فأشار لابولاي الى الخانة بمليء سوطه وسأل متهكما :
ـ هنا ؟
فطرق الجندي برأسه . وأجاب : نعم .. هنا ..
فحدق لابولاي . ونظر نحو الجنود الآخرين وقال بلهجة الاستفسار .
ـ ولكنكم لستم جميعكم جرحى .
ـ ان اكثرنا في دور النقاهة .
ـ النقاهة ؟! ولكني ارى بينكم ثلاثة على الاقل قد انتهوا من دور النقاهة . انهم اصح مني واقوى . فلماذا لا ينضمون الى الجيش ؟
فنظر اليه الجندي متجهما وأجاب :
ـ انا نتلقى الاوامر من ضابطنا .
ـ آه .. اذن فمعكم ضابط يتولى امركم ؟ ترى من هو ؟
ـ انه الكابتن تارديفيه .
قال ذلك ونظر الى لابولاي كمن يريد ان يقول : (ما قولك في ذلك) .
فصاح لابولاي في دهشة : تعني الكابتن شارل تارديفيه ؟! ذلك انه تذكر الفلاح الصلال الذي رآه لاول مرة في بليكور وكان تارديفيه قد ظهر في الافق في السنوات الاخيرة .. واصاب ببسالته شهرة واسعة .
قال الجندي بلهجة واثقة :
ـ وهل يوجد تارديفيه آخر في جيش الجمهورية ؟
فتجاوز لابولاي عن فحة الجندي وسأل :

ـ وهل جرح تاردیفیه ایضا ؟
ـ نعم اصیب بجرح خطیر فی معرکة (جیساب)
ـ معرکة جیساب ؟ ولکن هذه المعرکة یاصدیقی قد وقعت منذ ثلاثة شهور
ـ جمیع الناس یعلمون ذلك ·· فایة غرابه فی هذا ؟! ان الجنرال ارسل الکابتن تاردیفیه الی هنا لیستریح ·· ولکی یشرف علی الجرحی من الجنود ·
فصمت لابولای قلیلا ·· ثم مس معطف الجندی بطرف السوط · وسأله :
ـ کیف حصلت علی هذا المعطف الثمین ؟
لهز الرجل کتفیه واجاب :
ـ کیف حصلت علیه ؟ ان ثیابنا کانت مهلهلة ·· ولم یکن ثمة امل فی ورود لیاب جدیدة ·· فاضطررنا أن نستولی علی ما تصل الیه ایدینا حتی لا نسیر عراة الابدان ·
ـ ومن این حصلتم علی الثیاب ؟
ـ الا تنتهی من القاء الاسئلة أیها المواطن؟ ربما کان الافضل ان تستفسر من الکابتن تاردیفیه ·
ـ ذلك ما سأفعله ·· این هو ؟
وفی هذه اللحظة لاحت فی الافق سحابه من الغبار فاشار الجندی الیها ·· واجاب :
ـ هاهو ذا قادم ·
وعندئذ تحول لابولای الی الرجال الذین یرافقونه وقال :
ـ هلموا بنا ·· ولنتناول شیئا من النبیذ فی حانة البر والطلق بحواده دون أن یعیر الجندی اهتماما · ودون ان یقول له کلمة اخری ·
وخرجت صاحبة الحانة لاستقبال لابولای ورجاله · وامرت الخادم باطعام الجیاد ·
ولمحت المرأة الحزام المنقط الالوان الذی یتمنطق به لابولای

وادركت ان صيفها من ذوى الشأن فى العهد الجديد ، وسمت اليه الخمر ما عندها من النبيذ .

ولم يكد لابولاى يزدرد محتويات كأسه .. حتى سمع فى خارج جلبه غير عادية .. ثم وضع مصدوعه الجلبة بالتدريج وبعض لابولاى راطل من الباب . فراى مركبة ضخمة تدنو من الحانة بسرعة وعددا من الجنود الاغنياء يتزاحمون حولها .

ودخلت المركبة الى فناء الحانة وسط الصياح والضجيج .. وكادت تقف حتى سارع اليها الجنود وهجموا على بابها .. كل منهم يريد ان يسبق الآخرين الى دخولها ..

واوشك التزاحم ان يؤدى الى عراك .. لولا ان اقبل تاردبيه ..

• • •

ترجل تاردبيه عن ظهر جواده .. ونظر الى جنوده مستنكرا .. ثم اصدر امرا بصوت ناقب . فصمت الجميع وجمدوا فى اماكنهم ..

وكان ذلك السكون المطلق عقب تلك الضجة العاصفة دليلا على هيبة الضابط وسعة نفوذه .. وطاعة الجنود له .

ونظر لابولاى نحو تاردبيه ولم يتمالك من الابتسام .

كان منظره اعجب من منظر جنوده .. فهو مشعث الشعر طويل اللحية .. يرتدى معطفا من الفطيفة السوداء قد وشيت اكمامه بالنحاس .

وكانت تطل من احد جيوب المعطف عمامة ذات مفبض من فضة .. انه السلاح الذى ينتقل من منطقته فرفيع وانسيه السيوف التى يتزين بها النبلاء فى الحفلات الرسمية .

كان لابولاى قد قابل تاردبيه فى باريس .. حيث ذهب هذا الصعلوك الريفى مدفوعا بحقده على النبلاء للمساهمة فى اثارة الفتن وهدم النظام الظالم الذى كان هو احد ضحاياه .

ولما حاق الخطر بحدود فرنسا .. حمل تاردبيه السلاح .. وابلى خير البلاء .. واحرز فى الجيش شهرة واسعة حببت شهرته كبطل من ابطال الرعاع فى فجر الثورة .

ولم يكن عجيبا أن تتطور حياة هذا الفلاح البسيط كل هذا التطور . فقد كان ذلك العهد عهد انقلاب وتطورات . عهد تطور فيه (سانتير) من صاحب حانة الى جنرال عظيم .. وتطور فيه روبسبير من محام خامل الذكر الى ديكتاتور ..

واذن لم تكن لتة غرابة في أن يتحول تارديفيه من مزارع الى داعية للثورة .. ومن داعية للثورة الى جندى .. ومن جندى الى ...

وتقدم لابولاى حاجبيه . واصغى الى تارديفيه وهو يصدر اوامره الى رجاله .

اصدر تارديفيه اوامره في صيغة أيدت شكوك لابولاى . قال .

ـ يجب أن تعودوا الى مراكزكم في الحال .. فان استيلاءنا على قلعة لينة ليس معناه أن نهمل غيرها من القلاع التي ربما كانت أهم وأمن . فاذهب يامولينيه مع عشرين من رجالك الى طريق (شارلروا) وانت يابوليفى .. رابط مع عشرة من رجالك بالقرب من (كونديه) واتقلب جيدا طريق (فالنسيان) واما انت ياحربفيل .. فعليك ان تبقى رجالك بين (كونديه) و (تورناى) وان ترقبوا الحدود جيدا .

ويجب عليكم جميعا أن تفحصوا القلاع وتقدروا اهميتها قبل أن تضيعوا الوقت بجلبها الى هنا .

والآن .. اذهبوا .. وكونوا على يقين من انني سأحتفظ لكل منكم بنصيبه من هذه الغنيمة .

.. وبقى تارديفيه مع عشرة من الجنود فراح يصدر اليهم الاوامر والتعليمات بسرعة ..

واقترب منه الجندى المصوب الساعد وهمس في أذنه كلاما ..

واصغى تارديفيه الى همس الجندى باهتمام ثم هتف .

ـ ماذا تقول ؟ أحد النواب .. اين هو ؟

فاشار الجندى نحو الحانة . وصاح تارديفيه .

ـ يا للشيطان ..

ونكص على عقبيه فجاة . وقصد الى الحانة بخطوات واسعة . لكنه لم يكد ينفذ من الباب ، حتى راى لابولاى منتصبا امامه فاجاه النائب بقوله :

ـ دعنى اهنئك يا تارديفيه .. على الصحة الجيدة التى تتمتع بها الجرحى فى مستشفاك ..

فجمد تارديفيه فى مكانه .. ونظر الى النائب بحدة .. ثم انبسطت اسارير وجهه ، وصاح وهو يبسط يده الى صديقه :

ـ آه .. هذا انت يا كارون ، ما اسعدنى بلقائك ..

فقال لابولاى متهكما ، وهو يشد على اليد التى امتدت لمصافحته :

ـ هل انت واثق انك سعيد بلقائى .. ؟

ـ ولم لا ايها الصديق ؟ تعال معى الى غرفتى ، لنزيل رائى بضع زجاجة من افخر نبيذ احتفالا بهذه الصدفة السعيدة .

قال ذلك وتابط ساعد لابولاى ، وصعد به الى غرفته الخاصة فى الطابق الثانى .

حملت صاحبة الحانة الى الصديقين زجاجة من النبيذ وقدحين واشعلت النار فى الموقد ، ثم انصرفت ، واحتسى لابولاى محتويات كاسه فى صمت وسكون .. ثم حول ظهره الى الموقد وواجه صديقه .

سأله بصوت البس السؤال ثوب الأمر

ـ لماذا لم تلتحق بالجيش يا شارل .. ؟

فاجاب الضابط وهو يملأ كاسه :

ـ الم يذكروا لك السبب .. ؟

ـ قيل لى انك ارسلت الى هنا للراحة والاستشفاء بعد الجرح الذى اصابك فى (جيناب) منذ ثلاثة شهور ، وانه قد اعطيت بك مهلة الاشراف على الجرحى من الجنود ، ولكن الظاهر ان الجرحى الحقيقيين لا يزيد عددهم عن خمسة او ستة .. اما الآخرون فانهم اصح منى ومنك .. فكيف لم تنضم بهم الى جيش الجنرال ديموريه .. ؟

ـ لأنني استطيع خدمة فرنسا هنـــا ·· وفي ذات الوقت أعني نفسي والغني أحواني ··

فقال لابولاي ببرود

ـ صفوة القول انك انحدرت من جنتك الى قاطع طريق ·

فنظر اليه تاردبفيه في شيء من القلق · ثم ضحك ·· وحل حسامه ولقذف به في أحد الأركان ·· وارسل القبعة في اثره وقال

ـ انك مطبوع على الدقة يا كارون · وذلك ما جعل منك رجلا من رجال السياسة في هذا العهد ·· ولكن ما لنا ولهذا ·· فلنشرب نخب الجمهورية ··

ورفع الكاس الى شفتيه وهو يهتف : لتحيى الجمهورية ··

ـ ان الجمهورية تستطيع أن تحيا بدونك يا تاردبفيه ·· اللهم الا اذا لوحت اعوجاجك ·

ـ يا للشيطان ·· الا تستطيع ان تفهم يا رجل بانني اخدم وطني على طريقتي ؟ انك وصفتني بانني قاطع طريق ·· ولكن في وسعك ان تصف الجنرال ديموريه بمثل ذلك ·· كم عدد المدن التي نهبها هذا الجنرال ·· ؟؟

ـ انه لعمل ذلك في الحرب ··

ـ وهذا ما أفعله ·· انه يحارب اعداء فرنسا في المدن ·· اما انا فاحارب اعداءها الذين يقرون في المركبات ·

ان عمل مقصور على نهب النبلاء المهاجرين الذين من واجب كل فرنسي صميم أن يساعد على ابادتهم ·

هؤلاء النبلاء يتخطون الحدود حاملين معهم اموالهم وجواهراتهم واوانيهم الفضية والذهبية ·

ولكن ثروة من هذه وأموال من ؟ انها لثروة فرنسا وأموالها لقد ظل هؤلاء الاوغاد الاجيال الطوال يحبسون عن ابناء الشعب ما يستخلصون من خيرات الوطن ·· والآن قد بلغت بهم الجرأة ان يحاولوا تهريب هذه الكنوز من أرض الوطن ·· فهل يجرؤ أي جمهوري مخلص أن يلومني على ما افعل ؟

... اسى امسئول على ما يخص فرنسيا ·· واوزعه هنا على الجنود ... النساء الذين ارالوا دماءهم فى سبيل فرنسا ·

ـ هذه حجة ضعيفة لا تقوى على الوقوف على قدميها ·

ـ بل هى حجة قوية ·· وفيها الكفاية لاقنـــاع مجلس ... الشعب ·· ولكن حدثنى هل من نيتك يا لابولاى أن تقلت ... مجلس الشعب الى اعمالى ·· ؟

ينظر اليه لابولاى بحدة ثم أجاب ·

ـ هل تعرف سببا يمنعنى من أن افعل ذلك ؟

ـ لعم يا كارون ·· انى اعلم الشىء الكثير عن مدى نفوذك ... وسلطانك ، واعرف عن صداقتك لروبسبير · وادرك أن موقفى ... سيكون حرجا اذا انت صممت على الوشاية بى ·· ولكنى واثق من ناحية اخرى أن الحجة التى ادليت اليك بها فى الثو والدقيقة ... سوف يكون فيها الكفاية لاقناع مجلس الشعب ·

نعم ، انا واثق أن المجلس سيقتنع ، ولكنى واثق كذلك انه ... سيطالبنى برد الاسلاب والغنائم على اعتبار أنها ملك للأمة · ... وهكذا تنتقل هذه الاسلاب من يدى الى يد واحد من السماسرة ... قطاع الطرق ، فيقسمها فى جيبه بدلا من أن يضعها فى خزائن ... الأمة ·· فهل يرضيك أن تعود الغنائم على شخص آخر دونى ... يا كارون ؟ ·· وهل نسيت بهذه السرعة ما عانيناه معا من الام فى سبيل الحرية ؟ وهل نسيت الصداقة التى ألفت بيننا فى باريس فى فجر الثورة ·· ؟

هل نسيت المظالم التى انزلتها بى طبقة النبلاء فلا تأخذك الشفقة بى ·· ؟

اصغ الى يا كارون ·· ان ما افعله الآن هو ضرب من الانتقام الله يعلم انه من ابسط ضروب الانتقام ··

انهم سلبونى ما هو اعز على من الحياة ·· اما انا فلا اسلبهم من المجوهرات والاموال وادفع بهم الى العالم غارى الوفاض ، لا يملكون شروى نقير ·

تذكر زوجتى يا كارون ·· وكيف عانت حزنا وقهرا وخجلا ... مدة ثلاثة شهور من زواجنا المحزن ··

يا الهي .. كلما تذكرت ذلك ادهشني حتى وسعة صدري .. وادهشني انني لا أعمد الى كل رجل منهم يقع في يدي فالهبه بالسياط حتى يموت . كما أرادوك ان تموت بضربات السياط لأنك انتصرت لي في ذلك اليوم المشؤوم ..

وصمت .. وتلفصت عضلات وجهه تلفصا مخيفا .. ثم قال بعد لحظة :

ـ هل ترى انني ذكرت لك الاسباب الكافية التي تمنعك من الوشاية بي .. ؟

ـ نعم .. ان في هذه الاسباب اكثر من الكفاية .. ويؤلمني انني ادميت في نفسك جرحا كنت احسب انه اندمل ..

ـ انه اندمل يا كارون .. ولا أدري في الحق كيف اندمل .. ربما لأن احزان الشباب قل ان تدوم طويلا .. وربما اخيرا لأن الحياة الشاقة التي احياها ، والخطورات التي مررت بها قد انستني ذلك الماضي المؤلم .. والواقع يا كارون انه لم يبق للكابتن تارديفيه شيء كثير من صفات الفلاح تارديفيه الذي اختارته مارى التعسة زوجا لها منذ اربعة اعوام ..

ولكن بحسبنا الآن هذا يا كارون .. ولنتكلم عنك .. حدثني عن نفسك فقد انقضى عام منذ تقابلنا لآخر مرة .

وما زال الصديقان يتجاذبان اطراف الحديث حتى امسى المساء .. وعندئذ آثر لابولاى قضاء تلك الليلة في الخانة على استئناف السير في الظلام ..

ـ ٩ ـ
الاسير الثاني

وضعت صحاف الطعام وكؤوس النبيذ على المائدة الفترة بين اربعة شمعدانات فخمة قال عنها تارديفيه انه نهبها من دوق سابق ..

كان الطعام رديئا . اما النبيذ فمن افخر ما تنتجه لابولاى .

كان جديرا حقا بالكنوز الذهبية التي لم يرتاب لابولاي فيه في أنها نهبت من أحد السلاء كما نهب الذهب من الكنيسة بعض القصور العظيمة ..

وقد اطمأن فاردينيه الى صديقه وأطلقت الخمر لسانه . فراح يحدثه بغنائمه واسلابه .. وانتقل الى الكلام عن آخر غنائمه .. وقال :

ـ ان الاسلاب التي غنمتها قبل اليوم يا كارون . هي اسلاب محرك جشع الملوك .. أما غنيمة اليوم ..

ورفع عينيه نحو السقف .. وهز رأسه . فسأله لابولاي :

ـ ماذا عن غنيمة اليوم .. ؟

ـ انها تساوي مجموع الغنائم السابقة .. فاسمع قصتها : لقد مرت بنا اليوم مركبة عادية للظهر . فاوشك رجالي أن يتركوها تمر . ولكني يا عزيزي كارون رجل قوي حاسة الشم واستطيع ان اشم رائحة النبلاء على بعد فرسخ . اقتربت اذن من المركبة . وفتحت بابها .. فوجدت في داخلها سيدتين مقنعتين . واقول لك الحق انني شعرت بالاشفاق عليهما . لأنهما كانتا بغير شك قد هالتا نفسيهما بالفرار من فرنسا . والابتعاد عن حدودها . ولكني رجل لا أسمح قط للعاطفة ان تفسد على عملي .. فتركت لكل عواطف الاشفاق . وامرت السيدتين بالخروج من المركبة فاطاعتا في غير تردد ..

وقد سمحت لهما بالاحتفاظ بقناعيهما السميكين . لأنني رجل لغريزه رؤية الذهب أكثر مما لغريزه وجوه النساء . وقد كانت نظرة واحدة الى داخل المركبة كافية لارشادي الى ما أبحث عنه ..

رفعت مقعد المركبة . فرأيت تحته سلة حافلة بآنية ذهبية وفضية تربو قيمتها على اثمن ما غنمته من قبل .

ولكن ذلك لم يكن كل ما هنالك . فانني وجدت تحت المقعد الامامي سلة اخرى مليئة بالنقود الذهبية . وقد قدرت قيمتها بثلاثة أو اربعة آلاف جنيه على الاقل .. واكتشفت مع هذه النقود صندوقا صغيرا من الحديد . الفيته مليئا بالمجوهرات

والاحجار الكريمة . وهذه وحدها تزيد قيمتها على اضعاف قيمة الاوانى الذهبية ..

واقول لك الحق يا كارون . انني أعدت المقعد الامامي الى مكانه بسرعة لكيلا يرى احد من رجال هذا الكنز الثمين .. ثم امرت السيدتين بالركوب . وجئت بالمركبة الى هنا تحت حراسة رجال الاشداء ..

ـ واين يوجد الآن هذا الكنز .. ؟

ـ انه لا يزال في المركبة مع السيدتين . وقد امرت السيدتين بان تقضيا الليلة في المركبة . وفي نيتي ان اطلق سراحهما غدا .. وهو عمل كريم لا تطمئن به على يد انسان غيري . ومتى انصرفت المراتان شرعت في تقسيم الغنيمة ..

ثم غمز باحدى عينيه واستطرد :

ـ سأوزع الاوانى والنقود على رجالي . اما الصندوق الحديدي الصغير فسأحتفظ به لنفسي .. وسوف يعتبر الجنود انفسهم اغنياء بنصيبهم من هذه الغنيمة .. اما انا فان نفسي تحدثني بالهجرة الى المانيا أو انجلترا .. حيث اعيش هناك عيشة النبلاء .. لان الصندوق الصغير يحتوى على ثروة لا حصر لها ..

انني سائلك اليوم هل تنوى ان تلقى بي هذه مجلس الشعب وتكفي في الحق لا يهمني ان تنبي بي أو لا تنبي .. فقبل ان تصل الى باريس يكون الكابتن تارديفيه امسا على غير مسعى . لانني سأدعو نفسي في الطارح شارل دي تارديفيه . وارتدي الحرير . وارقد على فراش وثير . واشرب الشمبانيا بدلا من هذا النبيذ الحقير ..

وصمت تارديفيه لحظة . ثم تحول فجاة الى لابولاى . وقال وفي عينيه نظرة متبلدة :

ـ ما قولك يا كارون في ان ندعو المراتين لتناول طعام العشاء هنا .. ؟

فهتف لابولاى وقد ادرك غرضه :

ـ كلا يا تارديفيه . اسرفهما اذا شئت . واسلبهما اموالهما

. بابهما ولكن تذكر على الاقل انهما امرأتان . والله في ضعفهما ..

فضحك تاردیفیه ضحكة خبيثة واجاب :

ـ هل يجب ان اذكر لك ؟ .. وهل كان البلاء ينقون الله في ضعف نسائنا .. ؟!

كان كلامه هو الحقيقة على ما فيها من مرارة . فصمت لابولای لم يجد ما يقوله ..

وأطل لابولای من النافذة وصاح بأحد رجاله .

ـ جوبير .. ابلغ السيدتين تحياتي وقل لهما ان المواطن تاردیفیه يأمل ان يتشرفا بتناول الطعام على مائدته .. واذا رفضتا فارغمهما على الطاعه وجيء بهما الى هنا ..

فاجاب جوبير : حسنا يا سيدي ..

وانقضت بضع دقائق .. ثم سمع الصديقان اصوات وقع اقدام على السلم .. وصياح جوبير وهو يحطم السيدتين على الاسراع . ثم فتح الباب . ودخلت المرأتان يتبعهما جوبير ..

وكب تاردیفیه على قدميه . وقال بصوت اجتهد ان يجعله رقيقا مطمئنا ..

ـ اهلا بكما وسهلا .. اما انت ياجوبير . فاذهب الى الشيطان وانصرف الجندي . وبقيت المرأتان في احد الاركان . الى ان عاد تاردیفیه للجلوس . فلم تجدا الجراة على مخالفته .. وتقدمتا نحو المائدة . وعندئذ سقطت اضواء الشموع على وجهيهما ..

وراهما لابولای .. وحبس انفاسه ، وتقدم خطوة الى الامام .. ثم عاد فتراجع حتى التصق بالجدار . وهناك وقف يراقب المرأتين اللتين لم يبد عليهما انهما شعرتا بوجوده .

كانتا عاريتي الراس والوجه .. فراهما لابولای وعرفهما عرف فيهما المركيزة دي بيلكور وابنتها ..

وقفت المرأتان تحت أضواء الشموع .. ورآهما تاردیفیه وعرفهما بدوره ..

كان يهم بان يتقدم اليهما مقعدين .. ولكنه جمد في مكانه

وكف عن الحركة ثم التهم احداهما بعينيه ، والتهم الاخرى ، وزالت حسرة وجهه وارتجفت شفتاه .. كما ترتجف شفتا الرجل الذى يحاول السيطرة على عواطفه ..

استند بيديه على أحد المقاعد وانحنى الى الامام .. وعندئذ قرأ لابولاى فى عينيه ما يدور بخلده ، ولو كان الامر خاصا بامرأة أخرى غير سوزان دى بيلكور لما اهتم لابولاى بنظرة التشفى التى زانت وجه تاردييه بضاعة .. ولما تولته الدهشة لاحكام القدر ..

نعم .. كان القدر ساخرا الى ابعد حدود السخرية ، حين اوقع زوجة المركيز وابنته بين يدى الرجل الذى اغتصب المركيز زوجته فى يوم عرسها ..

وقد كان الكابتن تارديفيه هو السيد المطلق الحاكم بامره فى (بوارفير) .. كما كان المركيز فيما مضى حاكما بامره فى بيلكور ..

نظر لابولاى الى تارديفيه ، ورنى نظراته ، وابتسامته ، وادرك نوع الانتقام الذى يضمره ..

ولم تشعر المرأتان بوجود لابولاى .

كان كل اهتمامهما منصبا على ذلك العملاق الذى راح يصدمها بنظراته القاسية . فظلتا واقفتين ، شاحبتى اللون لاهثتى الانفاس .. فى انتظار الكلمة التى سيقرر بها العملاق مصيرهما ..

واخيرا ضحك تارديفيه ، واعتدل فى وقفته ، وقال بصوت كل نبرة من نبراته اهانة

ـ ايتها السيدتان .. لقد محا الجمهوريون الاديان وقالوا عن ذكر الله .. وكنت حتى الليلة الرهم فيما فعلوا ، اعتقادا بان الله الذى صم اذنيه عن ابتهالات ابناء الشعب كل هذا الدهر لا يمكن الا ان يكون رب البلاء وسيدهم .. اما الليلة فقد تعلمت بان الجمهوريين على خطأ ، وامنت بان فى السماء ربا

عادلا منتقما . هو الرب الذى الفى بكما بين يدى من دون اهل الارض طرا ..

انظرى الى ايتها الكركيزة ذى بيلكور .. وانت ايتها الآنسة ذى بيلكور .. انظرا الى وتاملا وجهى .. فهل تعرفاننى ؟ كلا طبعا .. فما كان لمثلى ان ينال نظرة منكما فى مجدكما .

ولكن هل جاءكما نبأ رجل من الرعاع يقال له شارل تارديفيه .. لم يتورع زوجك ايتها السيدة وأبوك ايتها الآنسة عن اغتصاب عروسه فى صبيحة يوم زفافه .. !

وهل جاءكما نبأ تلك العروس التعسة وكيف عانت حزنا وكمدا بعد تلك الوحشية ؟

ولكن لا .. فتلك اشياء ما كانت تلفت ابصاركما اذا رايتماها .. او تعلق باذهنيكما اذا سمعتماها .. وهل كانت حياة الفلاح المن او اعز فى نظركما من حياة اى حيوان يرعى العشب ؟

ايتها السيدتان .. انا شارل تارديفيه .. وتلك العروس التعسة هى زوجتى .

اننى لم اكن اعرفكما عندما دعوتكما لتناول الطعام على مائدتى . اما الآن .. وقد عرفت .. فماذا تنتظران منى بعد ؟..

فاجابته الكركيزة . وهى لاهثة الانفاس . شديدة امتقاع الوجه :

ـ نحن ننتظر منك ان تذكر اننا امرأتان .. وانك اذا لم تكن نبلا و ...

فقاطعها تارديفيه بخشونة :

ـ ايتها المواطنة .. الم تكن زوجتى امرأة مثلكما ؟ وبعد عاسى ليست الوحيد هو الذى تكبد بمظالمكم .. وهاهو ذا رجل آخر قد ترك السوط على جسده طابع قسوتكم .

ولوح بيده شطر لابرلاى .. فتحولت المرأتان .. وابصرتاه .. وانطلقت من فم كل منهما صيحة ..

كانت صيحة امل ورجاء .. لاشك ان لابولاى سيسارع ان نجدتهما .

ولكن لابولاى ظل جامدا فى مكانه ..

واسماء تارديفيه فهم الصيحة التى سمعها ، فقال وهو يضحك :

ـ ارى انك عرفته ياآنسة .. انه الرجل الذى حاول ان يقتل زوجتى من قبضة ابيك النبيل . فكان جزاؤه انه ضربه حتى ظن الجميع انه مات ..

اليس من اللائق بعد هذا ان يسهم معى فى الاحتفال باستقبالكما ؟

فصاحت سوزان :

ـ ولكنه مدين لى .. ومهما كانت آثام ابى فلا شك ان سيو لابولاى لا يمكن ان يلغى بها .. لانه مدين لى بحياته .. ولا يمكن ان ينسى هذا الدين .

فقطب تارديفيه حاجبيه . ونظر الى لابولاى .. فاجاب هذا الاخير :

ـ انى وفيت دينى ايتها المواطنة .

قال ذلك ببرود .. فالتفتت سوزان وغمغمت :

ـ وفيت دينك ؟

ـ نعم .. انك طلبت حياة اخيك وقد اعطيتك حياة اخيك .. فاجبت طلبك . ومنحتك حياة اخيك .. فكانت بذلك الصفية الحساب ..

ثم استطرد قائلا :

ـ وبعد .. فان الكابتن تارديفيه هو السيد هنا .. فتوجهى اليه بصراعك ايتها المواطنة ..

فتحولت الى تارديفيه وعلى وجهها علامات الذعر . وسألت بصوت مختلج : ماذا تنوى بنا ياسيدى ؟!

فابتسم واجاب : اطمئنى ايتها المواطنة .. سوف تعلمين انى رجل رقيق ..

ـ لقد توقعت هذا ياسيدى ..لقد توقعت ان تكون كريما .
ـ نعم ايتها المواطنة .. ستجدينني كريما .. كما كان
ابوك ..
فارتعد لابولاى .. ولكنه مثل نابت الجنان رابط الجاش .
اما سوزان فانها هتفت في ذعر : سيدى ..
وصاحت المركيزة : انك لن تجسر ايها الكلب الحقير ..
فهز تاردیفیه كتفيه وضحك ..
وهنا ارتجف جسد المركيزة غضبا .. كما كان منذ لحظة
يرتجف خوفا وفرقا .. والتفت لتاردیفیه رافعا اليه بصوت
رهيب جعله يفتح اصابعه في اذنيه .. وصاح بوحشية :
ـ اصمتي .. اصمتي حالا لهذا ..
وفتح الباب وهتف :
ـ جويو .. جويو .. تعال على عجل ..
واقبل جويو فامره تاردیفیه بان يعود بالمركيزة الى المركبة
وسمعت المركيزة ما قال فصاحت :
ـ كلا .. كلا .. انني لن اذهب .. ولن اترك ابنتي ..
فهز تاردیفیه كتفيه وقال :
ـ اذهب بها ياجويو .
فاطاع الجندى .. والجاهل في خشونته ان التي طلب اليه
اختراجها هي امراة ..
ولما تلاشى صدى آخر صيحة ارسلتها المركيزة قبل ان تلقى
في المركبة .. تحول تاردیفیه الى سوزان ورمقها بنظرة حاول
ان يودعها كل معاني اللطف والرقة ..
ولكن الفتاة اخطأت فهم هذه النظرة .. وحسبت ان عريكة
الرجل قد لانت .. فراحت تضرع اليه وتتوسل .
وقفت بقاعتها الطويلة .. ووجهها المشرق الساحر ..
وجعلت تبتهل الى تاردیفیه بصوتها المضطرب .. وبعينيها
الزرقاوين الذليلتين .. وبيديها المضمومتين فوق صدرها في
توسل ورجاء ..

ولكن تارديفيه ظل جامدا لا تحرك قلبه نسمة من نسمات الرحمة ..

تكلم أخيرا .. بصوت هادئ، ولين .. ولكن سوزان لم تكد تصغي اليه ، بقدر ما كانت تفكر في صمت لابولاي .

لامت نفسها على أنها احسنت الظن في أحد الايام بهذا المخلوق الذي رأته الآن على حقيقته .. نذلا حيالا .

- ١٠ -
الليلة

نظر تارديفيه الى لابولاي نظرة فهم هذا الاخير معناها . فتحرك من مكانه واقترب من المائدة وهو يقول بصوت أجوف :

ـ سأتناول جرعة من النبيذ ثم انصرف بتشارل

وملأ كأسه فصاح تارديفيه :

ـ املأ كأسي أيضا .. وكذلك كأس المواطنة .. تعالي يافتاة .. ان قليلا من الخمر ينعشك .

ووضع يده على كتفها واجتذبها اليه قليلا .

على أنه ما كاد يلمس بدنها .. ويشم الرائحة العطرية التي تنبعث من ثيابها .. حتى اضطرب ظهرا لبطن .. فتردد الانفاس في صدره سريعة لاهثة .. وضغط في انفعاله على كتف الفتاة فرفعت اليه عينين زرقاوين مرتجفتين . وتحركت شفتاها بسرعة كأنها تبتهل في صمت .

وفجأة .. شعرت سوزان بساعديه تلتفان حولها كأنهما جسد أفعى .. فصرخت في ذعر .. وتخلصت منه بقوة .. وتراجعت الى الوراء ..

بيد أن ضعفها .. ونظراتها .. وجمالها .. ورشاقة بدنها .. كل هذه كانت قد أثارت أخبث غرائزه .. فوثب نحوها .

وعندئذ حدث ما لم يكن منتظرا .. فقد تألق شيء فوق رأسه . ثم هبط ذلك الشيء على جمجمته .. فوقف في مكانه

ثم لرنح .. وسقط تحت قدميها فاقد الم ...
وتطلعت سوزان مرات لابولاى واقفا صامتا وفى قبضة يده احد الشمعدانات الفضيه الثقيلة التى كانت فوق المائدة .
ساد صمت عدبى استمر لحظة قصيرة .. ثم تكلم لابولاى اخيرا فقال بصوت ينم عن الاسف
ـ لقد كان من الممكن ان اضربه من الخلف ايتها المواطنة . ولكن ماذا كان يوحى غير ذلك .
ووضع الشمعدان على المائده . وركع بجانب تاردييه ، واصغى الى دقات قلبه ثم قال :
ـ اطلقى الباب ايتها المواطنة
فاطاعت دون تردد
وما ان دار المفتاح فى قفل الباب حتى نهض لابولاى واقفا وقال .
ـ ان الضربة القاتله الرشد .. فيجب الآن ان نبحث عن مبرر لها .

ووضع مقعدا تحت المصباح النحاسى الذى يتدلى من السقف ووقف فوقه ، وامسك بالسلسلة التى يتصل بها المصباح .. وجذبها بكل قوته فنزع الخطاف الذى يشد السلسلة الى السقف وسقطت من السقف بعض قطع الملاط .
قال لابولاى وهو يلقى المصباح والسلسلة بجانب تاردييه :
ـ هو ذا تفسير الضربة التى هبطت على رأسه .. وهو على تفاهته كفيل باقناع البسطاء امثال صاحبة الحانة ورجال تاردييه .
ثم اردف بعد لحظة :
ـ اخشى ان يظل تاردييه طويلا فى غيبوبته .. فقد فعلت الخمر فعلها فى حواسه وقواه .. وكانت ابسط ضربة كفيلة باقفاده الوعى .
وهنا تقابلت عيونهما .. وتقدمت سوزان الى الامام وقالت وهى تبسط اليه ساعديها :

ـ سيدى .. سيدى .. لو علمت كيف اساءت الظن بك منذ لحظة يسيرة

ـ كان من حقك ان تسيئى الظن .. ويؤسفنى انى كنت سببا فى زيادة حزنك ويأسك .. ولكن ماذا كان يوسعنى أن افعل ! .. لو انه ارتاب فى انى لست عدوك لما حانت لى فرصة لانقاذك .. ولاستطاع ان يطردنى او يرغمنى بسهولة رجاله على الانصراف ..

فهمت بان تشكره .. ولكنه قاطعها بشىء من الخشونة :

ـ كلا .. انت لا تدينين لى بشكر .. فقد فعلت من اجلك ما كانت رجولتى تدفعنى الى فعله من اجل اية امرأة اخرى فى مثل مركزك .

انى انقذتك الليلة ايتها المواطنة .. وساحاول مساعدتك على الفرار من بوزالير قبل ان يبزغ الشمس .. ولكن عليك بعد ذلك ان تعتمدى على نفسك ..

فصاحت وقد لمعت عيناها !

ـ افعل ذلك ؟

ـ ساحاول .

ـ ولكن بأية طريقة يامسيو كارون ؟

ـ لا اعلم .. ولكنى سافكر فى الامر .. اما الآن فيجب ان تعودى الى مركبتك وسارسل فى طلبك انت ووالدتك فيما بعد .. وسأدبر الامر بحيث لا تضطران الى العودة الى المركبة مرة اخرى .

ـ لا تضطر الى العودة الى المركبة مرة اخرى ؟ هل افهم من ذلك اننا يجب ان نترك المركبة هنا ؟

ـ لست ارى مناصا من ذلك ..

ـ ولكنك لا تعرف الحقيقة كلها ياسيدى .. ان فى المركبة

... ثمينا .. ان فيها كل ما نملك .. لاننا تركناها اصبحنا
... لا نملك شيئا .

ـ ربما كان من الافضل يا آنسة ان يعيش الانسان فقيرا على
... يعيش .. واكبر ظني انه لا مفر من ترك المركبة ومحتوياتها
... ا .

قال ذلك بشيء من الضجر .. كانما ضايقه ان ينصرف
... كيرها الى المال في تلك الظروف الحرجة .

بيد انها في الواقع لم تفكر في هذا المال الا لانه كان كل
... يهم اباها واخاها اللذين كانا في انتظارها في المانيا ..

ولقد امتعضت سوزان للهجة التي تكلم بها لابولاى . وهمت
... ان تعتب عليه .. ولكنه اسكتها باشارة من يده . وهمس :

ـ صه ..

ذلك لانه سمع في تلك اللحظة صوتا صرفها التفكير عن
... سماعه .. فنهض من مكانه فجاة . والتقط المصباح وسلسلته
.. ثم وثب الى الهواء بخفة بهلوانيه . وهبط على كتف الغرفة
... اهتزت ارض الغرفة بشدة ..

وفي ذات الوقت . القى لابولاى المصباح على الارض . ثم
... ارسل من فمه صرخة تردد صداها في جوانب الغرفة .

فعل كل ذلك بسرعة عجيبة . فنظرت اليه سوزان بدهشة
.. وراحت تسال نفسها ترى هل اصابه مس من الجنون ؟

ولكنها سمعت في هذه اللحظة الصوت الذى سبقها هو
... الى سماعه .

كان صوت اقدام تصعد السلم . وقد اسرعت هذه الاقدام
... عقب الصيحة التي ارسلها لابولاى .

وقبل ان تصل الاقدام الى قمة السلم .. فتح لابولاى باب
... الغرفة . وصاح يدعو صاحبة الحانة ـ ولكنه لم يكن بحاجة
... الى ذلك . لانها هي التي كانت تصعد السلم . ثم لحق بها
... جورو بعد ان سمع اهتزاز ارض الغرفة وصراخ لابولاى .

سالت صاحبة الحانة في جزع :

ـ ماذا ؟! ماذا حدث ؟
ووقع بصرها على الكابتن وهو ممدد على الأرض فهتفت :
ـ يا الهي ٠ ماذا أصابه ؟
فصاح لابولاى منتصتا الغضب :
ـ أيتها النصابة ٠٠ ألا تفهمين ما حدث ؟ ألا تعلمين أن سقف منزلك ينهدم ٠ وأن من الخطر الاقامة تحته ؟
وأشار بيده الى المصباح وقطع الملاط التى سقطت من السقف فسأل جوبو :
ـ ولكن كيف حدث ذلك ياسيدى ؟
ـ ألا ترى بعينى رأسك كيف حدث ذلك ؟ أما أنت أيتها المرأة النصابة ٠٠ فستنالين جزاءك ٠٠ وسوف تطلب الجمهورية لسنا باعظا لما أصاب الكابتن تارديفيه ٠
فقالت المرأة فى ذعر :
ـ يا الهى ٠٠ ولكن الذنب ليس ذنبى يا سيدى ٠٠
ـ وكيف لا يكون ذنبك وأنت تؤجرين للمواطنين غرفا متداعية ؟!
أجرى هذه الغرف للبلاء الهاربين ملتجئت ٠٠ أما أن تؤجريها للمواطنين البواسل وتعرضى حياتهم بذلك للخطر ٠٠ فجريمة لها عقوبتها ٠
ثم تحول الى جوبو الذى ركع بجانب الكابتن ليفحص إصابته وقال له بلهجة الآمر :
ـ اذهب بهذه المواطنة الى مركبتها ياجوبو ٠٠ وربما ادعوها للكابتنى بعد أن يفيق الكابتن من اغمائه ٠٠
ثم التفت الى صاحبة الحانة واستطرد :
ـ أما أنت أيتها المواطنة فعليك أن تساعدينى فى حمل الكابتن الى فراشه ٠
فأطاع جوبو ٠٠ وأطاعت المرأة ٠
ونقل تارديفيه الى فراشه ٠٠ وعندما أفاق من اغمائه بعد نصف ساعة ٠٠ وجد جوبو ساهرا عليه ٠

فعل .. واستفسر عن سبب وجوده في الفراش بثيابه . سبب الآلام التي يشعر بها في رأسه .. والتي تذكره بضربة مماثلة اصابته فافقدته الرشد .

ولم يكن جوبير قد داخله أدنى شك في صحة الخدعة التي دبرها لابولاى . ويبرر بها ما اصاب الكابتن . فراح يسرد على مرديفيه كيف سقط المصباح من السقف واصاب رأسه .. فمنعن تارديفيه المصابيح . والسقوف الشداخية.رغم بأن ينهض من فراشه . ولكن لابولاى دخل عليه في تلك اللحظة واشار عليه بالبقاء في الفراش واجتناب كل حركة ..

قال له بحدة :

ـ انك تجهل اصابتك يا شارل.واما اعرف رجلا مات لأنه لم يلزم جانب السكون التام وهو مصاب في رأسه باقل من اصابتك هذه .

فهتف تارديفيه . وكان أجهل من الغراب في المسائل الطبية :

ـ يالهي . ان فالاصابة خطيرة .

ـ انها لا تكون خطيرة اذا امتنعت عن الحركة ونمت . ومن المحتمل ان تبرأ غدا .. ولكنك اذا تحركت الليلة ساءت العاقبة.

ـ ولكنني لا استطيع ان انام الآن .. وانى مصاب بالأرق فاجاب لابولاى :

ـ سأبحث لك عن منوم .. ويحتمل أن أجد عند صاحبه الحانة شيئا من العقاقير المخدرة .

ثم التفت الى جوبير واستطرد :

ـ لا تسمح للكابتن بالكلام يا جوبير .. واذا اردت أن تراه غدا سليما معافى .. فمن الضروري أن تلزمه بالراحة الليلة .

قال ذلك وقصد الى صاحبه الحانه .. فسألها عن عادة مخمورة وانباها بان اصابة الكابتن خطيرة في الخطورة .. وانه اذا لم يستمتع بنوم هانىء فمن صار موته محققا . فهزت المرأة

.. وانسحبت من الحجرة .. واسرعت الى خزانة صغيرة
وتناولت منها قنينة صغيرة بها مادة سوداء . وقدمت هذه
القنينة الى لابولاى قائلة انها من مخلفات زوجها وانها سمعت
زوجها مرة يقول ان خمس قطرات من هذا السائل الأسود تكفى
لتنويم ثور .

فتناول لابولاى القنينة وصب بضع قطرات منها على قدح
نبيذ . وقدم القدح الى تاردييه فازدرده .. ولم تمض دقائق
دقائق حتى كان هذا الصعلوك يغط فى نوم عميق .

ومن ثم اصدر لابولاى امره الى جوبو بالانصراف
وعاد الى الغرفة التى تناول فيها الطعام .. فاقفل بابها ..
واخذ يسبر فيها جيئة وذهابا .. ويقلب فى فحص جميع
الوسائل الممكنة لانقاذ سوزان وأمها .

وحوالى الساعة العاشرة فتح لابولاى النافذة وناجى جوبو
وطلب اليه ان يعود بالمراكبين .

وكان جوبو قد علم من الرجال الستة الذين جاءوا فى رفقة
لابولاى بالمكانة الممتازة التى يستمتع بها هذا الشاب الشاب
فى مجلس الشعب . كما أنه ادرك مما رأى ان الصداقة بين
هذا الشاب والكابتن تارديليه عظيمة وطيدة .. وبذلك لم
يتردد فى اطاعته والنزول على ارادته .

واغلق لابولاى النافذة .. ووقف أمام الموقد .. وجعل يحرك
بقدمه قطع الخشب الملتهبة .

واخيرا فتح الباب .. ودخل منه جوبو وسوزان
قال الاول :

ـ لقد رفضت المواطنة الأخرى ان تأتى قائلة ان قدومها
ليست له ضرورة وأيدتها هذه المواطنة .

ـ حسنا .. اذهب انت يا جوبو .. وكن على استعداد فقد
احتاج اليك ..

فحياه الجندى وانصرف .. وما كاد يتوارى حتى اسرعت
سوزان الى لابولاى وهى تقول :

ـ يا مسيو كارون ٠٠ ان السماء ترعانا بغير شك فالجو رائع
رطوا في الشراب ٠ وسوف تضحك رفاقتهم ٠٠
فنظر اليها باعجاب كأنما يريد ان يستوعب كلامها ٠ ثم
ـال :
ـ ولكن لماذا رفضت الركيزة ان تأتي معك ؟
ـ انها لم تشأ ان تبرح المركبة خوفا على ما فيها من اموال
. الى رأت ان قدومها ليس ضروريا ٠
ـ ليس ضروريا ؟ انه ضروري يا آنسة ٠٠ لقد قلت لك فعلا
ـه ليس في نيتي ان ادعكما تعودان الى المركبة ٠٠ واليك
خطتي .
**ان في نيتي ان ادع جوبو ينتظر في فناء الخانة وبينما تتناولين
مع والدتك بعض الطعام هنا ٠٠ ومن ثم آمره بان يسهر بنفسه
على حراسة المركبة بدعوى انكما ستبيتان هنا ٠٠ وبعد ساعة
او اكثر ٠ عندما يسود السكون ٠٠ اسعى لتهريبكما من احدى
النوافذ الخلفية ٠٠ واترك لكما حرية العمل بعد ذلك ٠**
ـلك هي خطتي ٠٠ وليس في استطاعتي ان افعل اكثر من
ـلك ٠
فصاحت
ـ بل في استطاعتك ٠٠ في استطاعتك ٠
فسألها في تهكم :
ـ وكيف ٠
ـ انك لم تصدر في كل ما فعلت يا سيدي الا بدافع الرغبة
في ارضاء رجولتك ٠٠ فعاطفة الرجولة هي التي حفزتك لا الفارس
ـولا ٠٠ وهي التي تحملك الآن لانقاذ امرأتين ضعيفتين من
بدي اللصوص ٠
فصاح في دهشة :
ـ يا الهي ايتها المواطنة ٠٠ بأي حافز آخر ٠٠ وبأية عاطفة
اخرى تريدينني ان اعمل على انقاذك ؟
فردت خطة ٠ واطرقت برأسها ٠٠ وقد فر اللون من
وجنتيها ٠

ـ وهل نسيت انه قتل احد خدمي ؟
فاجابه دي كادو مقتضبا :
ـ اذن كان ينبغي عليك ان تشنقه .. بدلا من أن تعذبه هكذا ..
واشتد الجدل بين المركيز والكونت حتى أوشك أن ينقلب الى شجار عنيف . واخيرا أقبل الجلاد وانهى الخلاف .
قال أن السكرتير قد اسلم الروح .. فتنفس المركيز الصعداء . ووجد في هذا النبأ حلا موقتا ..
قال وهو يضحك :
ـ لقد مات المشنق في الوقت المناسب .. ولو ظل على قيد الحياة دقيقة واحدة لتشاجرت مع صديقي العزيز دي كادو
ثم التفت الى جلاده وسأله :
ـ هل انت واثق من أنه مات ؟
فاجاب الجلاد وهو يشير الى جثة لابولاي :
ـ انظر يا مولاي .
فتحول المركيز .. ورأى لابولاي معلقا بالحبال التي تشنق الى الوتد . وقد سقط رأسه فوق صدره .
فضحك ضحكة قصيرة مقيتة . وقال محدثا ابنته :
ـ خذي رمته اذا شئت .. ولكني واثق من أنه ليس في استطاعتك ان تفعلي بها اكثر من تلقيها للكلاب .
لكن تجيبه الفتاة .. وامرت بفصل الجثة عن الوتد .. ثم طلبت الى اثنين من الخدم ان يحملاها الى منزل دوهامل .. لأنها كانت قد سمعت من لابولاي أن دوهامل من اكرم اصدقائه ..
ولم يفهم المركيز .. وكانما عز عليه ان تعامل جثة لابولاي بمثل هذه الرحمة :
ـ ما اعجب قلب المرأة .. انها لا تحفل بالرجل وقد لا تشعر بوجوده .. ولكن متى طارحها الحب .. خيل اليها انها اصبح ملكا لها .. وان من حقها ان تتصرف به حيا .. وبجثته ميتا

- ٤ -

المتمردون

لا شك ان المركيز دى بيلكور ما كان ليعبر عن آرائه العنيفة بمثل هذه البساطة والطمأنينة لو أنه علم ان لابولاى لم يمت .. وان ما توهمه الجلاد موتا .. لم يكن سوى اغماء ..

ولو كان الموقف عاديا لما اطمأن المركيز الى كلام الجلاد .. ولاستوثق بنفسه من أن الشاب قد أسلم الروح .

غير انه لم يهتم هذه المرة بفحص جثة ضحيته .. وكان من دواعى ارتياحه أن لما موت الشاب جاء فى الوقت المناسب .. فوضع حدا لمناقشة اوشكت أن تستحيل .. ولذلك لم يهتم بفحص الجثة بنفسه كما اعتاد أن يفعل فى مثل هذه الاحوال ..

ومهما يكن من امر فان الجلاد وزميله لم يكتشفا الحقيقة الا عندما قطعا وثاق كارون ..

فقد حدث عندما تخلص الشاب من وثاقه وسقط على الارض ان اهتزت اهدابه .. واضطربت الانفاس فى صدره ..

وكان المركيز قد أخذ يبتعد .. فنظر الجلاد نحوه فى ذعر .. وهم بان ينبئه بهذا الاكتشاف .. لولا أن الفتاة نظرت اليه نظرة تحذير سحرته فى مكانه ..

قالت له هى :

- اصمت .. لك عشرة جنيهات ولزميلك مثلها اذا كتمتما الامر وحملتما هذا الفتى الى بيت دوهامل كما امرتكما .

كان بباب دوهامل مركبة .. وكان فى بيته زائر ..

وهذا الزائر شاب متوسط القامة .. تدل تقاطيع وجهه على انه لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره فى حين انه قد شارف الثلاثين او تجاوزها ..

قالت في حياء واحتشام وهي تدنو منه :

ـ سيدي .. انك كنت في بلكور على استعداد لخدمتي بدافع عاطفة اخرى .

لتنظر اليها مذهولا .. ولمع في عينيه بريق الامل او بريق الفوز ، او بريق الشك .. او مزيج من ذلك كله .. ثم اطرق برأسه واجاب بصوت حزين :

ـ تلك ايام طويت وانقضت يا آنسة

فقالت وقد شجعتها نبراته :

ـ لقد طويت تلك الايام حقا . ولكنهم يقولون ان الحب عاطفة ابدية لا تطوى ولا تموت ابدا .

وهنا اقترب منها لابولاى بدوره .. وشعر .. وهو الذى اوتى القدرة على كتم مشاعره . وخنق عواطفه .. شعر بانفاسه تتردد بسرعة ، وبقلبه يركض بين ضلوعه .

فقال اليه انها على حق .. وان الحب لا يموت ابدا .. لانه احس بقرنفله القديم يبعث فجاة بكل قوته وكل جبروته .

وعلى حين غرة .. مرت به لفحة من النسيم المعطر .. ذكرته بنسمات ذلك اليوم الذى طارحها فيه الغرام فسردته ذليلا ، كسير القلب ، لذكر ذلك اليوم .. فحسنت عاطفته ، وتراجع الى الوراء .

قال :

ـ واذا صح ما يقولون ايتها الآنسة من ان الحب لا يموت ابدا .. فان من الحق على كل حال ان اعبر مرة اخرى عن عاطفة قوبلت اول مرة بالاحتقار والازدراء .

واطمأنت الفتاة الى صوته الرقيق ، فرفعت رأسها ، وقالت وهي تحملق في عينيه :

ـ الا تستطيع ان تصدق يا سيدى .. الا تصدق انني تغيرت مع الزمن . وانني اصبحت ارى بغير العين التي كنت انظر بها قبلا وانك اذا نظرت الى مرة اخرى كما فعلت في بلكور .

وكفت عن الكلام . واصطبغت وجنتاها بحمرة الخجل

ضمتهما بكفيها ·
وصاح لابولاى وهو يحاول أن يرفع يديها عن وجهها
ـ سوزان ·· احقا ما تقولين !
فرفعت يديها عن وجهها · وتقابلت عيونهما مرة اخرى ·
همست لقد كنت على حق ·· فالحب لا يموت ابدا · كما ترى ··
قال وهو لا يكاد يصدق اذنيه :
ـ وهل تقبلينى زوجا لك يا سوزان ··
فاطرقت برأسها علامة الايجاب ·· وابتسمت · فهم بان يضمها الى صدره · ولكنها نهضت فجاة وهمست :
ـ صه ·· النى اسمع وقع أقدام ·
فحبس انفاسه · واصغى ·· ولكنه لم يسمع شيئا ·
فعاد الى الباب ·· وفتحه وانصت ··
كان السكون شاملا ··
على انه فكر فى ضرورة الاسراع مخافة ان تتحرك الريبة فى نفس جوبير اذا طالت خلوته بالفتاة ··
قال لها ذلك : وراح يوضح لها خطته لتهريبها ·· ولكنها اصرت على أن يكون رحيلها مع والدتها فى المركبة ليتسنى لهما اعداد أموالهما ·
فصاح :
ـ ولكن كيف ؟ اتبينى كيف نستطيع انقاذ هذا المال ؟
ـ ذلك من شانك انت يا كارون
فغمس يديه فى جيوبه ·· واخذ يسبر فى الغرفة جيئة وذهابا
مست اصابعه شيئا غريبا فى جيبه · فاخرجه ·· ونظر اليه
كان ذلك الشىء هو قنينة المخدر التى أخذها من صاحبه الحانة
تامل هذه القنينة طويلا ·· ثم لمعت عيناه وقال بسطء
ـ صبرا ·· دعينى افكر ·· ان قليلا من المخدر فى كؤوس الخدود تكفى لانقاذ الموقف ·

- ١١ -

الفرار

ظل لابولاى فى جلسته ساعة او بعض ساعة .. ثم فتح الباب وارهف اذنيه ولكنه لم يسمع حركة او صوتا .

فصعد الى غرفة تاردييه .. وفتش جيوبه حتى عثر على مفاتيح الخانة والاصطبل . ثم هبط السلم بهدوء . ودخل غرفة الشراب فرأى الجنود جميعا يغطون فى النوم

ابتسم مرة اخرى . وخرج الى فناء الخانة .

كانت لديه اشياء كثيرة يود ان يتحدث عنها الى سوزان ولكنه لا يريد ان تسمع الركيزة حديثه .

فتح باب المركبة وقال بلطف :

ـ هل لك فى مغادرة المركبة لحظة يا آنسة ؟ يجب ان اتحدث اليك .

ـ هاانذا يا سيدى .

وقدم اليها لابولاى ساعده لتعتمد عليه ، ثم سار معها ببطء نحو الاصطبل .

همست : اين الجنود ؟

فاجابها :

ـ جميع من بالخانة نيام . بفعل المخدر ما عدا خادم الخانة فانه نائم نوما طبيعيا فى احدى الغرف .

وهذا الخادم يجب ان يذهب معك . لا لأن من المستحيل تنويمه فحسب . وانما كذلك لأن لهجة تهريبك يجب ان تلصق بشخص ما . وليس ما يمنع من الصاقها به .

فسألته :

ـ ولماذا لا تلصق بك ؟

ـ لأننى يجب ان ابقى .

ـ آه ...

ونظرت اليه مستفسرة فأجاب .

ـ انني فكرت في الامر مليا يا سوزان ·· فوجدت ان يقالي لاصاص منه ·· لتضليل تارديفيه عن القاء القبض عليك ·· أما اذا فررت معك فانه لا يلبث ان يرتاب في انني الذي دبرت هذه المؤامرة وشرع في مطاردتنا ·· ولا يبطئ ـ بفضل أعوانه ـ وبما اني من مهارة ومعرفته بهذه المنطقة ـ ان يقتنصنا ·

كلا ·· يجب ان ابقى هنا ·· وعندما اكون اول من يكتشف مسألة اختفاء الخادم ومن ثم اضع خطة المطاردة بحيث أمكنك من الفرار ·

وسكت لابرلاي ولاح كأنه ينتظر سؤالا
ولكنه انتظر هنيئا ·· فقال :

ـ لقد كانت خطتك الاولى ان ترحل الى المانيا . حيث ينتظرك ابوك واخوك ·· اليس كذلك ؟

ـ نعم يا سيدي ·· انهما ينتظراننا في (تريف)

ـ يجب ان تغيري خطتك ·· سنصرف والدتك طبعا على السفر وحدها الى (تريف) ·· وسأتخذ الاجراءات اللازمة لتأمين سفرها ·· أما انت يا سوزان ·· فيجب ان تعرجي على (سواني) ·· هناك تستأجرين مركبة تعود بك الى فرنسا

فهتفت كأنها لا تصدق اذنيها :

ـ تعود بي الى فرنسا ؟

ـ نعم ·· فالطريق الى فرنسا هو الطريق الوحيد الذي لن يخطر ببال تارديفيه ان يطاردك فيه ·· وبذلك تنجحين في تضليله ·

دعي والدتك تسافر الى المانيا ·· ولكن قولي لها ان تتجنب (شارلروا)

ـ ولكني ارتجف فزعا يا سيدي لمجرد التفكير في العودة الى فرنسا

ـ من حقك ان تفزعي بصفتك الآنسة دي بيلكور ·· أما بصفتك زوجة المواطن لابرلاي ·· فانك لن تجدي غير الامان والطمأنينة ·

أجيبي اذا سئلت بانك زوجتي .. فيرحب الجميع بك .. كما يرحبون بي .

ثم ختم كلامه بقوله :

ـ والآن لننظر في أمر الخادم .

وقصد الى الغرفة التي يرقد فيها خادم الخانة فوجده يغط في نومه

دفعه بقدمه فاستيقظ الرجل . وسأل وهو يتثاءب .

ـ ماذا تريد مني ؟

وعندئذ عرض عليه لابولاي خمسمائة فرنك لكي يرافق المركيزة دي بيلكور الى المانيا .. ولم يكن الرجل قد ملك معشار هذا المبلغ طول حياته .. فخيل اليه انه يحلم .. ولكن محدثه اشعره بالحقيقة بأن لقمه نصف المبلغ سلفا .. وعندئذ عبر الرجل عن استعداده للرحيل الى جهنم .

وهكذا تعاون الرجلان في شد الجياد الى المركبة .. وبعد طبع دقائق .. كان لابولاي يقيم المركبة بنظره مودعا .

ـ ١٢ ـ

اليقظة

استيقظ لابولاي مبكرا في صباح اليوم التالي . فالفى الخانة هادئة ساكنة كما كانت قبل ان يأوي الى فراشه

ظل متمددا فوق الفراش .. يفكر وينصت الى الصمت الذي يحدثه سقوط المطر على زجاج النوافذ .

وما أن استرجع في ذهنه حوادث الليلة المنصرمة . حتى نهض من فراشه . وارتدى ثيابه .. ثم أطل من النافذة .

كان فناء الخانة خلوا الا من الاخاديد العميقة الموحلة التي تركتها عجلات المركبة وملأها ماء المطر .

اذن لا بد أن الجنود ما زالوا يغطون في نومهم ؟

فقصد الى غرفة تاريديفيه .. فوجده مستغرقا في النوم فهزه بعنف وصرخ في أذنه انهض يا شارل .. انهض

ففتح تارديفيه عينيه وتثاءب وسأل : كم الساعة الآن ..
ثم أن عل الأثر مفتوحا وصرخ. يا الهي.. ما هذا الصداع ؟
ولكن لابولاى لم يشأ اضاعة الوقت . فقال بلهجة التأكيد:
ـ لقد ذهبت المركبة
فقطب تارديفيه حاجبيه وسأل
ـ المركبة ؟ عن أية مركبة تتكلم ؟
ـ عن أية مركبة ؟ وهل كانت هناك غير مركبة آل بيلكور ؟ المركبة التي بها الكنز ؟
وهنا سقط فك تارديفيه في دهشة . وصاح .
ـ ذهبت ؟ وكيف ؟ هذا مستحيل
ـ تعال وانظر بنفسك .. انني في الحق لا اعلم كيف يقوم رجالك بالحراسة والرقابة .. لا شك انهم انتهزوا فرصة ما أصابك فأسرفوا في الشراب وناموا .. ومن المحتمل أن يكونوا نائمين حتى الآن .. فالمكان هادئ ساكن .
فوثب تارديفيه من فراشه . وأطل من النافذة . وعقدت الدهشة لسانه حتى عن ارسال الشتائم والسباب .
رأى باب الحانة مفتوحا .. وكذلك باب الاصطبل .. فراح يبحث في جيوبه ثم صاح أخيرا وقد انفلت سحنته حتى صارت لا تشبه سحنة انسان :
ـ هذه خيانة .. لقد سرق المفتاحان .. ويل للسارق سيكون نصيبه الموت بشنقا .
فسأله لابولاى :
ـ هل كان هناك من يعلم بوجود المفتاحين في جيبك ؟
ـ التي قلت لك ذلك ليلة أمس .
ـ نعم .. نعم .. اذكر ذلك . ولكن ألم يعلم بوجودهما أحد سواى ؟
ـ ان خادم الحانة رآني وانا اغلق البابين واضع المفتاحين في جيبي
ـ اذن علم بنا لنبحث عن هذا الخادم

وهبط الاثنان السلم بسرعة . ونقلا الى الغرفة الكبرى ووجدا الجنود نياما كما تركهم لابولاى بالامس .. ووقع بصر تاردیفیه فی جوانب الغرفه علی آوانی الخمور والکؤوس . فضرب بقدمه المقعد الذی ترقد علیه صاحبة الحانة .. فسقطت المرأة علی الارض .. وصاحت مذعورة .. وایقظت صیحتها بعض الجنود .. فعمد تاردیفیه الی البعض الآخر .. وما زال یرفسهم بقدمیه . وهو یشتم ویسخب ویرغی ویزبد حتی نهضوا جمیعا .. ووقفوا أمامه فی حالة یرثی لها من الخجل والحیرة ولم یصدقوا آذانهم حین أنبأهم تاردیفیه باختفاء المرکبة .. واطل بعضهم من الباب للاستیثاق من الحقیقة . ولکنهم لم یروا اثرا للمرکبة .

صاح الکابتن بصاحبة الحانة :

ـ این خادمك الخنزیر أیتها المرأة ؟

فأجابت المرأة وهی ترتجف علما بأن الخادم یبیت عادة فی غرفة قریبة من الاسطبل . فانطلق تاردیفیه ولابولای الی هناك . وغنی عن الذکر انهما وجدا الغرفة خالیة

صاح تاردیفیه :

ـ انك لفعلك من فعل هذا الخادم اللعین .. لقد کانت الخیانة مکتوبة علی وجهه .. وطالما شعرت نحوه بالشك والارتیاب وها هی ذی الحوادث قد اثبتت صحة شعوری .

انه ارتشی بغیر شك .. وانتهز افراط هؤلاء الاوغاد فی الشراب فساعد المرائین علی الفرار .. ولکن انت یالابولای .. هل کنت نملا کالآخرین ؟؟

ـ کلا

ـ انن کیف لم تشعر بحرکة المرکبة فی فناء الحانة ؟

فاجابه لابولای ببرود :

ـ انك تطالبنی بایضاح اشیاء کثیرة .. اننی شخصیا لا اکاد اصدق ان المرکبة استطاعت الخروج دون ان اشعر بها .. ولکننا الان امام امر واقع .. فالمرکبة قد اختفت وفی

...لطاقي انه من الافضل ان نسرع بالبحث عنها .. بدلا من ...ساعة الوقت في التفكير والتخمين وتحليل كيفية اختفائها ..

ولما كان قد خامر تاردیفیه شيء من الشك في لابولای .. ...قد فهمت هذه العبارة على شكركه وريبه .

وهكذا عاد الرجلان بسرعة الى عربة تاردیفیه .. وشرعا ...ي وضع خطة المطاردة .

قال تاردیفیه انه علم من الاوراق التي وجدها مع المركيزة ...عندما استوقف مركبتها انها تنوى السفر الى المانيا .. والفرض ان يستدعي رجاله الحسين الذين لنرهم في الطرقات المختلفة لمراقبة حدود فرنسا واقتناص مركبات النساء الهاربين .. وان يرسل هؤلاء الرجال الى جميع الطرق الموصلة الى (لياج) لمراقبة المركيزة الهاربة .

وهنا حمد لابولای الله في سره على انه آثر البقاء لعرقلة خطط تاردیفیه . اذ لو انفذ الكابتن هذه الخطة لوقعت المركيزة حتما في قبضة رجاله . وهو قد وعد جاستين فرارها الى المانيا .

قال ـ وهو يشير باصبعه الى خريطة امامه ـ ان هذه الخطة التي اقترحها تاردیفیه .. هي خطة عقيمة لا تؤدي الى نتيجة .. لان اقصر طريق الى المانيا هو طريق (شارلروا) و (روشفور) و (لكسبورج) .. وما دامت المركيزة تبغي الوصول الى المانيا باسرع ما يمكن .. فلا شك اذن انها ستسلك اقصر الطرق .

ثم قال :

ـ وبعد فان من العبث واضاعة الوقت ان ترسل في طلب رجالك . ويحسبك ان تفترض رحيل المركيزة وابنتها عن طريق شارلروا . وترسل بعضا من رجالك لمطاردتهما .

ففكر تاردیفیه في الامر مليا ثم قال :

ـ انك على حق .. وسابعث بعض رجالي الى طريق شارلروا لاقتناصهما اذا خطر لهما استئناف السفر الى المانيا

فنظر اليه لابولای في شيء من الدهشة وقال مرددا كلامه:

ـ اذا خطر لهما استئناف السفر الى المانيـــا ؟ ماذا في استطاعتهما أن تفعلا غير ذلك ؟

ـ واذا خطر لك أن تطارد انسانا ·· فانه يحسن بك ان تضع نفسك في مركزه · وتفكر تفكيره ·· واني لاسأل نفسي ماذا يمنع المرأتين والخادم الخائن وسائق المركبة من التفكير في العودة الى فرنسا لتضليلنا على اعتبـــار اننا لن نفكر في تعقبهم في الطريق المؤدي الى فرنسا ؟

ثم ان في استطاعتهم متى عادوا الى فرنسا ان يستأنفوا السفر الى المانيا عن طريق (اللورين)

واذن يجب أن نطاردهم في الطريق الى فرنسا

فارتعدت فرائص لابولاي خوفا على سوزان · وقال وهو يتظاهر بقلة الاكتراث :

ـ ولكن هل لسيت أن رجالك يراقبون الحدود الفرنسية فعلا ؟

ـ ان في الاستطاعة تضليلهم ·· وخداعهم ·· والرأي عندي ان أبعث بطائفة من رجالي نحو الشمال الى (روبيه) · وبطائفة اخرى نحو الجنوب الى (شارلمون) · فما قولك في ذلك يا كارون ؟؟

فاجاب لابولاي ببرود :

ـ أقول انك تهذي ·

ـ سوف ترى انني على صواب ·

واصر تاردیفیه على رأيه ·· ولما يئس لابولاي من اقناعه · تأكد لديه ان هذه الخطة ستنتهي حتما بالقصاص سوزان · ووجد ان الطريقة الوحيدة لانقاذ الفتاة هي أن يلحق بهـــا بنفسه ويحاول مقابلتها في الطريق بين (صوانى) و (اودلارد) ثم يرافقها بنفسه الى فرنسا ·

حزم لابولاي أمره على ذلك · واعلن لتاردیفیه عزمه على استئناف رحلته ثم أمر رجاله بالاستعداد ·

وانه يودع تاردیفیه ويهم بالانصراف ·· اذا بأحد رسل

البريد يحمل الحانة وهو مشمت الوجه والشعر ، مبلل الثياب بماء المطر .

وقد طلب الرسول قدحا من النبيذ ، فقدمته اليه صاحبة الحانة فاردرده في نهم ، ثم سأل صاحبة الحانة عما اذا كان المواطن النائب لابولاى قد مر بحانتها .

ولما أومأت المرأة الى حيث كان لابولاى يتحدث الى تارديفيه .. تنبه الرسول بارتياح وقصد توا الى لابولاى .

ـ يا الله أيها المواطن النائب .. لقد انتظرتك طويلا في (مالنيان) وما كانت الرسالة التي احملها اليك على جانب عظيم من الاهمية . فلقد خطر لى انك ربما ابطأت في الطريق لسبب ما . فجئت الى هنا في البحث عنك وقضيت ست ساعات تحت وابل من المطر .

اليك يا سيدى رسالة من المواطن النائب مكسيليان روبسبير ..

فتناول لابولاى الرسالة وفضها وقرأ فيها ما يلى :

« عزيزى كارون

« سيحمل اليك رسول هذه الرسالة وانت في طريقك الى فرنسا بعد نجاحك الشرف لك ولى في المهمة الخطيرة التى اوصيت باسنادها اليك . فانا اهنئك على اللباقة التي اظهرتها في تقريب وجهة نظر ديموريه العنيد الى وجهة نظر مجلس النعب . وانتهز هذه الفرصة فاسند اليك مهمة اخرى ارجو ان تضطلع بها وانت في طريقك الى ارض الوطن .. وتلك هى ان تعرج على (ارتوا) وتقصد الى قصر (دومبريفال) على بعد اربعة اميال جنوب (اراسى) . وهناك تلقى القبض على الفيكونت دومبريفال وتعود به الى باريس سجينا . وحبذا لو فتشت القصر وبحثت بين اوراق هذا الارستقراطى عن وثائق تثبت خيانته للجمهورية الفرنسية .

وقبل ذلك توقيع « روبسبير » ..

طوى لابولاى الرسالة ووضعها في جيبه وهو يغمغم

ـ يخيل الى ان الجمهورية ستجعل منى كلب صيد ..

وجاء احد اتباعه في تلك اللحظة ، وابلاه بانهم على استعد
.. وعندئذ ودع لابولاى صديقه ناريليه .. وامتطى جواد
.. وسار في الطريق الى الحدود الفرنسية .. ورجاله في
اثره ..

وكان البرد قارسا والامطار لا تزال تهطل بغزارة .. ولك
لابولاى ورجاله لم يعباوا بالمطر والصقيع .. وواصلوا الس
باقصى سرعة تستطيعها الجياد ، حتى وصلوا الى (لوز) بعد
ثلاث ساعات فقصدوا الى حانة فلاندر .. وهي المحطة الوحيدة
لانتظار مركبات السفر ، واستبدال الجياد .. وهناك استفس
لابولاى عن وصول مركبة الى الحانة قادمة من (سوانى) وا
اجيب بالنفي .. خطر له ان مركبة سوزان ربما كانت قد
ابطأت في الطريق بين (لوز) و (سوانى) .

قطع مع رجاله بقية الميال نحو (سوانى) دون ان يرى
اثرا للمركبة فملكته الدهشة .. ثم استولى عليه القلق ..
ولكنه ضاعف سرعته ، ووصل مع رجاله الى (سوانى) حول
الساعة الرابعة .. فقصدوا الى (حانة البريد) .. وهناك
امر لابولاى اتباعه بالاستراحة .. وتناول الطعام .. ثم راح
يلقي على صاحب الحانة عشرات الاسئلة .. فاجابه الرجل
بان مركبة كالتي يصفها له وصلت الى حانته حقا حول الظهر
.. ولكنها كانت في حالة يرثى لها .. اذ تحطمت احدى
عجلاتها على خمسة عشر ميلا من (سوانى) ..

ثم قال صاحب الحانة ان السيدتين اللتين كانتا بتلك المركبة
اضطرتا الى الانتظار حتى اصلاح المركبة .. ثم واصلتا السفر
منذ ساعة فقط في الطريق الى (لياج)

فصاح لابولاى في دهشة :

ـ وهل سافرتا معا ؟؟

فاجابه الرجل بالايجاب .. وعندئذ ادرك لابولاى ان
المركيزة لابد قد ألنت ابنتها عن عزمها .. وحملتها ـ وربما
ارغمتها ـ على مرافقتها الى المانيا ..

قال :
ـ هل لاحظت من حركاتها وكلامهما ان هناك خلافا بينهما ؟
ـ كلا ايها المواطن .. لقد كانتا على اتم وفاق
فسأل لابولاى فى يأس :
ـ الم يحدث مثلا ان سألتك اصغر السيدتين صـــا على سكنها استئجار مركبة خاصة ؟
ـ كلا .. انها انتظرت اصلاح المركبة بفارغ الصبر حتى يتسنى لها السفر مع زميلتها .
فجمد لابولاى فى مكانه .. وقطب حاجبيه ..
وفجأة .. خيل اليه كان انفاسه قد احتبـــت
خامرته ريبة فجائية .. ريبة مقيتة ..
اذن فقد خدعته الفتاة وفرت مع أمها .. ولم تقصـد الى مرنســا كما وعدته ..
سأل :
ـ ان جيادنا متعبة .. الا نستطيع الحصول على جيـــاد اخرى ؟؟ لاننا بحاجة الى سبعة جياد ..
فاجابه صاحب الحانة :
ـ استطيع ان اقدم اليك جوادين الآن .. وخمسة بعـد نصف ساعة .
ـ حسنا .. جئنى الآن بجواد واحد .. واعد الرحلة معه جياد باسرع ما يمكن ..
وبينما كان صاحب الحانة يعد الجواد .. تناول لابولاى لقمة خبز .. وشرب كاسا من النبيذ .. ثم دعا اليه احد رجاله وقال له :
ـ اصغ الى يا جاران .. سيقدم لكم صاحب الحانة جيادا اخرى بعد نصف ساعة .. فامتطوها على الفور .. واتبعوا بى فى الطريق الى (لياج) لاننى سأقصد الى (لياج) فى الحال .
وبعد دقيقتين . كان لابولاى يلهب جواده .. ويطوى به الارض طيا .. فى اثر مركبة المركيزة دى بيلكور وابنتها

هتفت المركيزة من الجزع :

ـ انني اسمع وقع حوافر جواد يقترب بسرعة مخيفة .

وسمعت سوزان هذا الصوت . واجابت :

ـ لا شك انه أحد رسل البريد يا سيدتي . هؤلاء الرسل هم وحدهم الذين ينطلقون بمثل هذه السرعة .

واقترب الجواد بسرعة . ثم ارتفع صوت خشن يأمر سائق المركبة بالوقوف .. فامسكت المركيزة ساعد ابنتها باحدى يديها . ووضعت باليد الاخرى علامة الصليب على صدرها

ـ انقذنا يا الهي .

وتمتمت في ذعر :

أما سوزان . فانها عرفت الصوت وصاحت :

ـ رباه ! انه لابولاي .

فصرخت المركيزة :

ـ لابولاي .. ها هي ذي المدارة يا سوزان .. اطلقيها عليه الفليه اقتليه ..

فقطبت الفتاة حاجبيها .. وفر اللون من وجنتيها . ولكن نظراتها ظلت تنم عن البسالة وقوة العزم .

مدت يدها وتناولت المدارة . وفي هذه اللحظة وقفت المركبة .

ترجل لابولاي عن ظهر جواده . وشد عنانه بغصن شجرة على قارعة الطريق .. ثم مشى تحت رذاذ المطر . وفتح باب المركبة .

وقد ارتجفت المركيزة عندما وقع بصرها على وجهه ولكنه لم يعبأ بها .. بل ولم يشعر بوجودها .

قال في مرارة وتهكم . موجها حديثه الى سوزان :

ـ ايتها المواطنة .. عندما اطلقنا أمس . لم يخطر ببالي انني سأضطر الى مطاردتك هكذا .

انني اعرف بعض الشيء عن طباع قومك . وعن كلامهم المعسول . واعمالهم الجوفاء .. ولكني كنت غبيا حين ظننت

بك . على اننا لا نتعلم الا بالتجارب . تفضل بالنزول ايتها المواطنة

فسالته بصوت حاولت ان يكون رصينا هادئا :

ـ ولماذا يا سيدى ؟

ـ لتنفيذ الجانب الذى يخصك من الاتفاق .. لقد اتفقنا على ان تلعب والدتك بالاموال الى المانيا . بشرط ان تعودى معى الى فرنسا

ـ لم تكن لهذا الاتفاق اية صبغة جدية يا سيدى .. اننى وافقت عليه لانني كنت امراة يائسة فى موقف دقيق .

ـ لا شك ان ذاكرتك لم تسعفك ايتها المواطنة .. فان موقفك لم يكن دقيقا . لانني تطوعت لانقاذك بتضحية لروتك واموالك . ولكنك ابيت التضحية بهذه الثروة . واقترحت الاتفاق الذى اتفقنا عليه .

وساد صمت استطر لابولاى فى خلاله ان يسمع جوابها حاولت أن ترفع عينيها الى عينيه . ولكنها لم تستطع

ـ قلت لك انني كنت فى موقف غير عادى يا سيدى . ومن المؤكد انك لن تاخذنى بكلمات نطقت بها فى ساعة يأس وحنون ..

الله كان اتفاقا لا حق لى فى ابرامه .. لانني لا املك حرية التصرف بنفسى ومستقبلى

اننى مخطوبة الى الفيكونت اناتول دومبريدال .. وقد ابرم عقد الخطوبة فعلا .. وسيقابلنى الفيكونت فى « تريف » .

كانت هذه العبارة كانها صفعة اصابت وجهه . فوقف لحظة صامتا مذهوشا . وشعر شعورا مبهما بالشبه بين الاسم الذى ذكرته الفتاة .. واسم الرجل الذى صدر اليه الامر باعتقاله صباح اليوم .

ـ ذلك لا يهمنى .. يجب ان تفى بالوعد الذى قطعته على نفسك

ـ اننى ارفض يا سيدى . فتفضل باغلاق الباب .. ودع العربة تواصل سيرها .

العدد القادم

المليونيرة

بقلم

الكاتب العالمى جورج برناردشو

الرواية التى صودرت قبل الثورة

تخرج الى النور

ل

ترجمه كاملة امينه للنص الذى كتبه الروائى العالمى برنارد شو . وتحليل فنى رائع لمبادئ الاشتراكية يقدمه برناردشو باسلوبه الرائع . وتحليله الفلسفى العميق .

اقرأ فى هذه الرواية

قصة الطبيب الترى الذى احبته المليونيرة البريطانية .

الثمن ٣ قروش

ـ لستطيع امك أن تواصل السير .. اما انت فيجب ان تأتي معي كما اتفقنا .. انني لا استمح بان اكون العوبة في يد امرأة .

ـ انني مطمئنة حيث انا يا سيدي .

ثم امرت السائق : سر في طريقك يا جان .

فعاد لابولاي غدارته الى السائق وقال مهددا :

ـ اذا تحركت قيد شعرة افرغت الرصاص في راسك

ثم تحول الى سوزان واستطرد :

ـ انني لم الجأ الى القوة قط مع النساء اينها المواطنة .. ارجو الا ترغميني على عمل تشمئز منه نفسي .

وتقدم خطوة الى الامام فصاحت به :

ـ قف حيث انت يا سيدي .

فلم يعبأ بها .. ووضع قدمه في المركبة .. ومد يديه ليجتذبها . ولكنها رفعت ساعدها بسرعة . وامرت بقبض الحمارة على جبهته .. بكل قوتها .. فتريح .. وسقط الى الوراء

وكانت عيناها ترقبانه في ذعر .. الى ان سقط في الاوحال .. وعندئذ فقط ادركت ما فعلت

فغمغمت امها : يا لك من فتاة عزيزة باسله .

ولكن الفتاة لم تسمعها ..

وبسطت سوزان يدها فسقطت القذارة من بين اصابعها .. وهنا سألها الخوذي :

ـ هل ستأنف السفر يا آنسة ؟

فلم تجبه .. بل وثبت في الاوحال .. وتحت رذاذ المطر .. وانحنت بجانب لابولاي .. ولحصت قلبه .. ثم امسكت ساعديه .. واجتذبته من الطريق .. ومددته تحت احدى الاشجار ..

وهناك وقفت ترقبه لحظة .. ثم انحنت مرة اخرى والصقت شفتيها بشفتيه ..

ورنيت الفتاة الى المركبة كالظبي المذعور . وامرت السا
ان يلهب الجياد .

لم تع كلمة واحدة من ثناء أمها التي لم تر تلك القبلة .

كانت تفكر .. والمرورقت عيناها بالدموع حين تصورت
ابولاى مصمى عليه وملقى في الارحال .. ثم غاضت الدمو
ن عينيها واحمرت وجنتاها خجلا حين فكرت في أنها ـ رغ
لأنسة ذى بيلكور النبيلة ـ قد سمحت لنفسها . حت
عنافع الرحمة والاشفاق . ان تنسى بشخصيتها شخص كالروض
لحسب والنسب ..

ـ ١٣ ـ
الرسول

احسن لابولاى صنعا حين شد جواده الى احسن احد
لاشجار على جانب الطريق . فقد لفت هذا الجواد نظر رجال
حين ليمروه بعد نصف ساعة .

وقد كان جاران اول من ابصر بالجواد فقصد اليه .. وفتش
سرجه . ووجد به غدارة واحدة .. ولم يجد الاخرى . فقال
لزملائه .

ـ اراهن على اننا اذا بحثنا .. وجدنا جثة الفارس على
مقربة من هنا ..

وكان الليل قد ارخى سدوله . فترجل الجنود . واخذوا
يبحثون بين الاعشاب البرية .. وما لبث ان عثر احدهم
بجسم لابولاى فلمعن فيه النظر وعرفه . وهتف : ـ يا الهى
.. انه المواطن الشائب ..

فصاح بعض الجنود : ـ هل مات ؟!

وخف جاران الى حيث كان لابولاى ممددا على الارض .
بعحصه ثم اجاب :

ـ كلا .. انه لم يمت .. ولكنه مصاب بجرح بليغ في
جبهته .. يا الهى .. من يعلم المدة التى قضاها المسكين في
الاوحال ..

ووقف جاران يفكر فيما يجب عمله .. واخيرا تذكر انهم مروا في طريقهم بمنزل منفرد على نصف ميل .. هو المنزل الوحيد الذي صادفوه منذ خروجهم من (سواكن) .. فقرر ان يذهب بالنائب الى ذلك المنزل . وامر زملاءه بحمل لابولاى في معطف كبير ..

ولما اصبحوا من المنزل على بعد بضع خطوات .. افاق لابولاى من اغمائه فجاة .. وصاح :

ـ من انتم بحق الشيطان .. والى اين تذهبون بي ؟

فاجابه جاران مطمئنا . وقال لابولاى :

ـ دعوني اسير على قدمي ...

واسوى على قدميه بصعوبة .وهتف ـ حبذا لو جئوني بجوادي

فصاح جاران محتجا :

ـ ان حالتك لا تسمح لك بالركوب

ولكن لابولاى ابى ان يصغى اليه

كان قد استرد كل حواسه . وتذكر خدعة سوزان اولا .. وخيانتها وغدرها ثانيا . فاصبح يتحرق رغبة في انتقامها .. والانتقام منها .

بيد انه لم يكد يحاول امتطاء الجواد حتى شعر بعجزه .. فقد اضعفه نزيف الدم .. وتجلدت اعضاؤه لشدة البرد . ولم يجد بدا من العمل بنصيحة جاران .. فاعتمد على ساعد هذا الاخير .. وقصد الى المنزل واتباعه في اثره

وقضى لابولاى ساعة او بعض ساعة وهو جالس امام الموقد ينفضها ويفكر فيما مر به من الحوادث . ويضع خطته للانتقام

وجد انه اذا ارجأ المغادرة الى اليوم التالى . فقد تفلت منه الفتاة الى الابد وقد تصل الى (كريف) قبل ان يتمكن من اللحاق بها . وهي اذا وصلت الى كريف صارت بامن من الجمهورية ورجالها .

وكانت الزوبعة لا تزال تزار في الخارج . ولكن نوره الطبيعة لم تحجب الدفقات التي دوت على الباب .

وطرق الباب مرة أخرى . فتحته المرأة .. وسمع لابولاى صوتا رقيقا خيل اليه انه يعرفه يقول :
ـ سيدتى .. اننا عابرا سبيل وقد ضللنا الطريق فهلا فى التماس مأوى
فاجابت المرأة فى أدب :
ـ يؤسفنى انه لا توجد بالمنزل غرفة لكما
فقال صوت آخر :
ـ نحن لا نطلب غرفة يا سيدتى . انما نطلب كومة من القش نرقد عليها .. فهذه ليلة ليس من الرحمة ان نترك فيها للكلاب ـ فضلا عن الآدميين ـ على قارعة الطريق ..
سمع لابولاى هذا الصوت . وخيل اليه انه يعرفه كذلك .. فاطل نحو الخارج .
قالت المرأة :
ـ لا استطيع يا سيدى .. ان ..
فقاطعها صاحب الصوت الثانى :
ـ هانذا ارى زوجك أمام الموقد يا سيدتى ..فدعينا نعرف رأيه .
فاحمر وجه المرأة خجلا .. ونظرت نحو لابولاى..وهمست بأن تجيب ..
كان وجه لابولاى محجوبا . ولا تظهر منه غير العينين .. ولكن المرأة رأت فى هاتين العينين نظرة اسكتتها
قال لابولاى :
ـ دعيهما يدخلان يا ماتيلد .
ولقد نطق بهذا الاسم كيفما اتفق .. فاحمر وجه المرأة مرة اخرى ولكنها اطاعته دون ان تعرف غرضه
ودخل الرجلان .. ولشد ماكانت دهشة لابولاى حينما وجد انه يعرفهما ..
كان احدهما هو الكونت دى كاندو .. صديق المركيز دى بيلكور . اما الثانى ـ وذلك ما ضاعف دهشة لابولاى ـ فكان الرسول الذى حمل اليه فى الصباح رسالة روبسبير .

سأل نفسه في عجب ·· ترى ماذا جمع بين هذين الرجلين ·· وساوى بينهما ؟

لو لم يكن ذلك الرسول هو الذي حمل اليه رسالة دوسبير ، اذن لما اهتم بما راى من زمالته لارستقراطي عريق من الارستقراطية كالكونت دي كارلو

قال متظاهرا بانه صاحب الدار .

ـ تفضلا بالدخول ·· اننا لا نستقبل الغرباء في بيتنا خوفا من الاشرار ·· على اننا لن ندخر وسعا في توفير اسباب الراحة لكما ·· اننا فقراء ·· ولكن ··

فقال دي كادو في ادب :

ـ اننا على استعداد لدفع ثمن ما تقدمونه الينا ·· فهل نجد عندكم شيئا من الطعام ؟

فصاح لابولاي محمدنا المراة التي راحت ترمق الزائرين بقلق وارتياب :

ـ حالي ما عندك من الطعام يا ماكيلد ·

فصاح الرسول :

ـ اذن فلنسرع · فانني اكاد اموت جوعا ·

فتمتم دي كادو في رقة :

ـ كن صبورا يا اناتول ·· فالمسرات الطيبة لم تكن تتوقع دائما ··

اناتول ·· ؟

دوى هذا الاسم في اذني لابولاي ·· ورن صداه في ذهنه · انه يعرف شخصا بهذا الاسم ·· ولكن من هو ؟

قال الرسول محمدنا لابولاي :

ـ املأ كاسك يا صاح ولنشرب نخبا ·· لمعرفة ميولك السياسية ··

فلم يدرك لابولاي غرضه ولكنه ملأ كاسه · فقال الرسول :

ـ والآن ·· لنشرب نخب الملك · ليحيى الملك ·

فرمقه لابولاي طويلا ، ثم قال ·

ـ ليس أحب الى من ان اشرب نخب حياة الملك .. ولكن
وا اسفاه .. لقد مات الملك .

ورفع الكاس الى شفتيه .. فقال فى كادو وهو يخرج من
جيبه علبة السعوط الصينية :

ـ يخيل الى انك من أنصار النظام الملكى يا سيدى .. لقد
كان هذا النخب محكا لميولك السياسية .

فأجاب لابولاى فى تواضع :

ـ وماذا يفهم الفقراء امثالنا من الشئون السياسية ؟ عدا
ارفات عصبية يا سيدى لا اظن انه قد مر بالعالم مثلها .. الى
الانسان اصبح فى هذه الايام لا يلمس الى جاره .

ثم التفت الى الرسول وقال :

ـ يخيل الى من صوتك واسلوبك يا سيدى انك لست من
الرعاع .. ومع ذلك فان مظهرك وثيابك يوحيان الناظر بانك
من ابناء الشعب ..

فضحك الرسول وقال :

ـ نعم .. نعم ، ان احدا لا يرتاب فى اننى من الرعاع ..
والدليل على ذلك اننى استطعت اليوم اقناع بلدور رسول يحمل
رسالة من باريس الى كلب الذى نوئب مجلس الشعب يقال
له « لابولاى » .. !

فصاح لابولاى متظاهرا بالدهشة :

ـ ايمكن هذا ؟ ولكن كيف حدث ذلك ياسيدى ؟ ان الرسول
يجب ان يحمل اوراقا تثبت شخصيته . ليتمكن من اجتياز
الحدود ..

فابتسم الرسول وقال فى خيلاء :

لقد اجتزت الحدود باوراق لا زيف فيها . هى اوراق رسول
حقيقى من رسل البريد فتكت به واستوليت على ثيابه واوراقه
.. والرسالة التى كان فى طريقه لتوصيلها .

ـ انك تهزأ بباطلى يا سيدى .

ـ اؤكد لك اننى لا اقول غير الصدق .

فنظر لابولای الی محدثه باعجاب ، وقال :
ـ ولکن کیف بالله استطعت أن تفعل کل هذا ؟
ـ کیف استطعت ؟ سأقول لك کیف استطعت . انني من (ارتوا) ..
وهنا قاطعه دی کاندو بان قال علی سبیل التحذیر :
ـ انك لن تکف عن المباهاة والافتخار باعمالك یا اباتول .
فاجاب الاخیر وهو یضحك :
ـ الا تریدان تقلع عن هذه المخاوف التی لا مبرر لها ؟
ثم تحول الی لابولای ومضی فی قصته فقال :
ـ قلت لك انني من (ارتوا) ولی فیها املاك کثیرة .. وقد اتصل بی اخیرا ان قطاع الطرق الذین یتالف منهم مه یسمونه مجلس الشعب قرروا هلاکی .

ولکن قبل ان تمتد ایدیهم الی خطر لصید (ارتوا) الذین کنت الهیهم بسوطی کالکلاب . خطر لاولئك الصید ان یحفروا حفروا امثالهم فی مقاطعات اخری . فهجموا علی قصری فی احدی اللیالی ، واشعلوا فیه النار .. ولکنی نجوت باعجوبة ولجات الی منزل فلاح شیخ ممن ظلوا علی اخلاصهم لی .. فمکثت فی ذلك المنزل ثلاثة اسابیع . اطلقت فی خلالها شعر راسی ولحیتی حتی صرت اشبه الرعاع ..

ثم ارتدیت ثیابا فذرة ممزقة برفقة بها الجمهوریون المخلصون وبدات رحلتی الی الحدود .

ولما اقتربت من الحدود ، خفت الا یکون فی مظهری وحده ما یقنع حراس الحدود بانني من الرعاع ، واشفقت ان یکتشف امری ..

والتقی حائر الضرب اخیرا فی اسبانیا ، فلما بعثة سعیدة لسوق الی رسولا من رسل البرید ، فخطر لی فی الحال ان اتزود بثیابه واوراقه .. فتمکنت به .

وقد وجدت معه رسالة باسم النائب لابولای .. ولاشك انك سمعت عنه ، فمزقت الرسالة ، وکانت دهشتی عظیمة

عندما قرات محتوياتها . وعرفت انهـــا تتضمن امرا بالقاء القبض على ..

كانت الاربطة التى عصب بها لابولاى راسه ووجهه تحجب ملامحه .. فلم يتبين دومبريفال شيئا من علامات الدهشة التى استولت على النائب ..

استطرد دومبريفال قائلا وهو يضحك .

ـ ولعلك تستطيع أن تقدر أمانتى اذا قلت لك اننى قمت بنفسى بتسليم هذه الرسالة الى النـــائب لابولاى فى صباح اليوم ..

وانتفخت اوداجه كبرياء وفخرا وهو يقول :

ـ وياللا .. كم كنت بارعا فى تمثيل دور الوطنى الغيور .. وفى اللعب بعقل ذلك النائب الغر ..

ثم تأمل سخرية القدر .. لقد استطعت الخروج من ورطـــا بفضل الاوراق التى تتضمن أمر القبض على .

قال ذلك وتطلع الى لابولاى فى انتظار كلمة اعجاب . فقال النائب ببرود !

ـ الحق انك كنت بارعا غاية البراعة .. ولكن اليس ممـــا يؤسف له ان تفسد عملك العجيب بتشبثك به على مسمع من فلاح جاهل بسيط مثل يا سيدى الفيكونت اناتول دومبريفال؟

قوطب الفيكونت من مقعده . ونظر ذى كادو الى لابولاى فى ذعر ..

هتف دومبريفال :

ـ يا للشيطان .. من أنت .. ؟

فاجاب لابولاى ببرود :

ـ انا النائب الغر الذى خدعته اليوم فى (بولونيا) .

ثم صاح : جاران ..

ففتح الباب فى الحال . ودخل جاران وزملاؤه .

اما دومبريفال فقد سقط فكه وزاغت عيناه ووقف كالمصعوق وكان ذى كادو قد نهض واقفا بدوره ..

استطاع في لحظة ان يلم بالموقف على حقيقته .. فابتسم وقال وهو ينقر بأصابعه على علبة السعوط .

ـ لقد وقعنا يا عزيزي الميكونت .. وما يؤسف له انك لن تستطيع ترديد نصيحتك الطريفة على مسامع أصدقائك بعد الآن ..

فانقلبت سحنة دومبريفال . وهم بالوثوب على لابولاى .. ولكن حاران احاطه بساعديه . ومنعه من الحركة .

أمر لابولاى رجاله بقوله :

ـ اذهبوا بهذين الرجلين .. وضعوهما في مكان امين حتى الصباح ..

فوضع في كادو علبة السعوط في جيبه وقال :

ـ اما انا فانني لن ازعجك يا سيدى .. وما دمت لم اتلق امرا بالقبض على فاسمح لي بان اتقدم اليك باقتراح .

ـ تكلم ايها المواطن ..

ـ يخيل الى ان رحلتي بحكم الى باريس لن تخلو من المضايقات بالنسبة اليكم .. وانا شخصيا لا اميل الى القيام بهذه الرحلة .. اولا لانها مسببة .. وثانيا لانني لا اريد ان انظر الى العالم الآخر من خلال نافذة (الجليوتين) .

ولذلك كله فاني اقترح عليك ايها المواطن ان تنقض يديك مني هنا .

ـ وكيف ذلك ايها المواطن ؟

ـ ان رجالك من الجنود الذين يحسنون الرماية . فمن الافضل لي ولك اذن ان تأمرهم باطلاق الرصاص على حالما تبزغ شمس الغد .

فنظر لابولاى الى محدثه مشفقا ..

ورأى امامه ـ لأول مرة ـ رجلا استقراطيا باسلا جديرا بالاكبار والاعجاب ..

قال : انك احترت اهون السبل ايها المواطن .

ـ اظن ذلك ..

ـ ولكنك قد تستطيع اجتناب الشرين معا أيها المواطن ·
طلب مسازك ·· ستعرف رأيي في الصباح ·· ثم قرير العين
ال أن تقابل ·
اذهب بالسجينين يا جاران ·

- ١٤ -

الرسالة ···

لقي لابولاي ساعة بعد انصراف النبلين · وهو يجري
ريفحص في تلك الفرقة الصغيرة ·· وفي عيليه دلائل التفكير
العميق ··
تذكر ما قالته سوزان عن خطوبتها للفيكونت دومبريقال ·
واعتزامها مقابلته في (الريف) ·
ولكن ها هو ذا دومبريقال قد وقع في قبضة يده ·· افلا
يمكن استثمار هذه الحقيقة لارغامها على المثول بين يديه ·· بدلا
من أن يتعقبها ويطاردها ·· ؟
نعم · ان في استطاعته ان يبعث اليها برسالة ينبئها فيها
بان خطيبها اسير بين يديه · وبان لها ان تختار بين الحضور
لتجدده ·· والذلال نفسها لانقاذه ·· وبين ان تتركه لمصيره ·
وفي الحالين ، سيكون انتقامها عظيما ، وستكون آلامها افضل
عقوبة لها ·· وذلك كل ما يريده ·
كان الشعور الغالب عليه في تلك اللحظة ، هو التغلب ،
والرغبة في ان يكون انتقامه عظيما ·· مذلا ساحقا لقلبها ··
جارحا كبرياءها وكبريائها ··

* * *

وفي الصباح ، كان الغالب لا يزال عند قراره هذا ·
أرسل في طلب السجينين · فجيء بهما ·· كان دومبريقال
ممتقع الوجه ·· مشعث الشعر والهندام ·· خلافا للفيكونت الذي
بدا ·· الذي بدا أنيقا باسما كما كان العهد به دائما ·

قال لابولای بتلك الصرامة التي اصبحت احدى صفاته .
ـ ايها المواطن دومبريفال .. ما دمت قد قرات الرساله التي سرقتها من الرسول الذى قتلته .. فانك بغير شك تعرف نياتي نحوك ..
فاحمر وجه الفيكونت غضبا واجاب وقد ازداد الغضب شجاعة لم تكن في احد الايام من صفاته :
ـ اما نياتك فانني لا اعبا بها .. ولكن يجب ان انافس كلماتك .. تقول انني قتلت وسرقت . فهل ثبت ايها الجمهوري انني من النبلاء .. ؟!
ـ تعني بذلك طبعا ان طبقة النبلاء التي تنتمي انت اليها تستطيع ارتكاب هذه الجرائم دون ان ينالها عقاب . ودون ان توصف اعمالها بانها جرائم . البس كذلك ؟ ولكنك نسيت ان الجمهورية قد محت النبلاء ومحت معهم امتيازاتهم الفاضحه .
فزار الفيكونت :
ـ يا لك من وغد .. !
ـ ايها المواطن الارستقراطي . احرص على الفاظك .
ودنا لابولای من الفيكونت واستطرد وشرر الغضب يتطاير من عينيه :
ـ اذا نطقت بهذه الكلمة مرة اخرى ووجهتها الى او الى رجال امرت بك أن تضرب كالكلب .
وكما يتلاقى القليل في الكثير . كذلك تلاشى غضب دومبريفال امام غضبة لابولای .
قال لابولای وقد ملك نفسه :
ـ انك لا تستحق شيئا من عطفي .. ولكني مع ذلك سألقي عليك درسا في سعة الصدر وكرم الخلق .
اننا سنرحل الى باريس بعد نصف ساعة .. فاذا كان لك اصدقاء ينتظرونك ونود ان تنبئهم بموقفك فاقض نصف الساعة في الكتابة اليهم . وسأتدبر الامر بحيث تصلهم رسالتك ..

فاشتد امتقاع الفيكونت .. واجاب بصوت اجش :
ـ يسرني في الواقع ان اكتب رسالة .
ـ اذن فافعل ذلك في الحال .
وقدم اليه ورقا وقلما ومحلقا .. ثم التفت الى دي كادو وقال
ـ اما انت ايها المواطن كادو .. فاني يسرني ان تشرفني بتناول الطعام معي ريثما يفرغ المواطن دومبريفال من رسالته .
فنظر اليه كادو في شيء من الدهشة وعمغم :
ـ انت كريم يا سيدي ولكن ..
فقاطعه لابولاي بابتسامة :
ـ لقد قررت ان اقضي في امرك بنفسي ايها المواطن .
فتنفس دي كادو الصعداء . وقال :
ـ وهذا ايضا كرم منك .. فقد خفت ان تذهب بي الى باريس وانا رجل متقدم في السن لا احتمل عناء السفر .
وجلسا امام المائدة . وقدمت اليهما ربة الدار دجاجة وبيضا وخضرا وتبيلا . فهتف دي كادو :
ـ ولكن .. هذه وليمة ..
وعلى الرغم من اعتقاده بانه سيموت بعد نصف ساعة .. فانه اقبل على الطعام بشهية .. وراح يتحدث بانشراح الى اول جمهوري فرضت عليه الظروف بان يجلس معه حول مائدة واحدة .
اما دومبريفال فانه استغرق في التفكير لحظة .. ثم تناول القلم وراح يدبج رسالة الى الآنسة دي بيلكور ..
ولو قد أمل عليه لابولاي هذه الرسالة بدافع من الرغبة في الانتقام لما جاء مضمونها أولى بالغرض من العبارات التي دبجها دومبريفال من تلقاء نفسه .
كانت رسالة تعسة لم يعن فيها دومبريفال بتوديع خطيبته بقدر ما عنى باستعجاله مساعدتها .
كتب اليها انه سجين بين ايدي رجال في الاستطاعة رشوتهم وابتياع ضمائرهم . وتوسل اليها ان تبذل جزءا من ثروتها

الواسعة لانقاذ حياته ، واطلاق سراحه . وقال لها انه يضع فيها كل آماله ، وينشدها باسم الحب المتبادل ، الا تهمل امره ، وتتركه في ورطته .

ولقد بلغ من تأثره وحزنه وانسحاقه على نفسه ان الدموع ترقرقت عيناه وهو يكتب . وسقطت على الرسالة دمعتان كانتا ابلغ استعطاف .

وبعد ان فرغ الفيكونت من الكتابة طوى الرسالة ووضعها في غلاف كتب عليها : (الى الآنسة دى بيلكور بفندق الملوك الثلاثة بمدينة تريف)

ثم اعلن فراغه من مهمته ، فطلب اليه لابوراى ان يجالس دى كادور ويتناول معه شيئا من الطعام وبينما يكتب بدوره رسالة تهمه .

وتناول لابوراى القلم وكتب :

« ايتها المواطنة . ان الرجل الذى تعتبرينه خطيبك ومن اجله اقدمت على خيانتى وحاولت قتلى ، هذا الرجل اصبح الآن بين يدى . فاذا شئت انقاذه ، فعليك بمقابلتى فى باريس ، فربما استطعت ان امنحك حياته »

ثم طوى الرسالة حول رسالة دومبريفال .. ووضعهما فى غلاف واحد كتب عليه عنوان سولانج .

وبعد ذلك دعا اليه جاران وامره باخراج دومبريفال فاطاع .. وهكذا لم يبق بالغرفة سوى دى كادور .

فهض النبيل الشيخ واقفا . ورسم علامة الصليب على صدره ثم اقترب من لابوراى بثبات وقال له :

ـ انى على استعداد يا سيدى ..

فصمت لابوراى بعينيه طويلا ثم قال :

ـ أيها المواطن دى كادور .. لقد فكرت فى امرك .. ورجعت الى ما دعتك لم اتلق من باريس اية تعليمات بشأنك . فليس ما يبرر تدخلى معنا .

والواقع يا سيدى انى لا ادرى ما يبرر تدخلى فى شئونك على الاطلاق بل الامر على العكس .. فانني كلما تذكرت كرمك

والعاطفة النبيلة التي حفزتك لانقاذي من سياط المركيز دي بيلكور منذ اربعة اعوام .. وجدت ان من واجبي نحوك أن امهد لك سبيل الفرار ..

ستجد جوادا بانتظارك في الخارج يا سيدي .. وفي استطاعتك أن ترحل متى اردت . فانت حر مطلق السراح .. ولكن بشرط واحد . هو أن تتكرم بنقل رسالة مني الى الشخص الذي كتبت له ..

اختلجت عينا الزرقاوان في شيء من الخجل .. وغمغم بصوت يختلج :

ـ ليس في نيتك اذن أن تقتلني رميا بالرصاص ؟

فهتف لابولاي : اقتلك رميا بالرصاص ؟

وهنا فقط تذكر الاقتراح الذي عرضه عليه دي كادو في المساء وصاح .

ـ يا الهي .. لقد نسيء الظن بانسانيتي أيها المواطن ؟ انحسبني قاتلا يشتهي سفك الدماء ؟

ثم قدم اليه الرسالة واستطرد :

ـ ها هي ذي الرسالة التي رجوتك ان تحملها .. انها باسم الآنسة دي بيلكور ..

ـ سأحملها بسرور يا سيدي ..

واراد أن يخفي انفعاله .. فملأ الفه بالسعوط .

• • •

وافترق هذا الرجلان كما يفترق خير الأصدقاء .. وكل منهما يشعر بانه مدين لصاحبه دينا لا يقدر من اهميته ان احدهما ارستقراطي والآخر جمهوري .

وما ان انصرف دي كادو حتى أمر لابولاي فجيء بدوسبريمال قال النائب محدثا الفيكونت :

ـ أيها المواطن . انا سنبيعا الآن رحلتنا الى باريس . فاذا وعدتني بشرفك الا تحاول الفرار سمحت لك بان تستنشق الهواء النقي بكل حريتك وكرامتك .

فنظر اليه دومبريفال في لحة واجاب :

ـ اذا وعدتك بشرفي ؟! يا الهي .. ان مثل هذا الوعد لا يكون الا بين رجلين شريفين . وانا اضن بوعودي من ان ابذلها جزافا لاول جمهوري حقير يطلبها .

فرمقه لابولاي بنظرة جعلت الدم يفيض من وجهه ، وصاح وقد انتفخت الشرايين في جبينه :

ـ انني حذرتك من اهانتي ..

ثم التفت الى رجاله وقال :

ـ خذوا هذا الرجل . وضعوه على ظهر الجواد . وشدوا يديه ورجليه ظهره . واوثقوا قدميه تحت بطن الجواد .

ـ ١٥ ـ

سيسيل ديشيه

جلس لابولاي امام مكتبه في منزله بشارع الجمهورية ـ الذي كان من قبل يسمى الشارع الملكي ـ وراح يعبث بالقلم بين اصابعه ..

كان مورد الحذين لامع العينين ، لا يزال يبدو في اذنيه صدى عاصفة التصفيق التي قوبلت بها خطبته في مجلس الشعب ..

كان ينتمي الى حزب روبسبير .. وهو حزب عرف اعضاؤه انهم رجال اعمال لا اقوال .. وهو اذن حزب خليق بان يبرز فيه من اوتي بلاغة كبلاغة « لابولاي » .

وفي ذلك العهد ، كان النضال على اشده في مجلس الشعب بين حزب روبسبير وحزب « الجيروند » . اولئك الذين وصفهم الجنرال ديموريه بانهم « جزويت الثورة » .

وفي ذلك اليوم قد عرف « لابولاي » ان يرد على التهم التي وجهها « الجيروند » الى حزب روبسبير . وقد فعل ذلك ببراعة وبلاغة حببت « فرجينو » ابلغ خطباء « الجيروند » .

وهكذا كان ذلك اليوم يوما بارزا في حياة « لافوازيه » السياسية وقد استقبله الجمهور عند الصرافة من المجلس الشعبي بمثل المنزل الذي كان يستقبل به « روبسبير » نفسه .

وقد تذكر لافوازيه هذا الاستقبال الماسي وهو يجيب بالنفي بهز يديه فلمحت هيئته ..

ومع ذلك كانت تمر بلافوازيه لحظات تخلد فيها حاسته وينطفئ فيها جبينه . ويضطرب فيها صفاء هيئته .

كانت تمر به هذه اللحظات كلما فكر في الليلة التي قضاها في حالة السر في (بوازفير) . حين وكع بجانب سوزان ، وسمع كلماتها الزائفة المصقولة التي استمرت بضع ساعات .

يا الهي !! تأتي سوزان الى باريس .. ؟

كان يلقي على نفسه هذا السؤال في كل يوم من العشرين يوما التي انقضت بعد عودته .. والتي قضاها الفيلسوف دوسبريفال في سجن (لكسمبورج) انتظارا لمحاكمته .

ولما لم يكن دوسبريفال قد حوكم وتعدم في خلال هذه المدة فالمفضل في ذلك يعود الى جهود لافوازيه .. الذي رجا روبسبير في ترجيء هذه المحاكمة لقيلة لاسباب خاصة .. وقبل روبسبير رجاءه . ولكنه سأله عن هذه الاسباب . فوعد بان يفصح عنها فيما بعد .

وقد قضى لافوازيه تلك الايام في انتظار سوزان . على أمل ان تصوغها رسالته المقتضبة أو ضراعة دوسبريفال الى مقابلته . ولم يسمه منعما ابطأت الا ان يسأل نفسه ترى هل قد قلب هذه المخلوقة من الصخر وهل طبعت على القيافة وعدم الوفاء لتنكر لحبيبها كما تنكرت له ..؟

طرد لافوازيه هذه الافكار من ذهنه وعاد الى القلم في المداد وهم بان يكتب .. ولكنه سمع في هذه اللحظة صوت وقوف مركبة امام الباب . فتساءل ترى من يكون الزائر ؟

وقدم باب الشرفة . ودخل خادمه الامين ماريدياته . وأعلن ان بالباب امرأة تطلب مقابلته ..

فاضطرب لابولاك ظهرا لبطن وجرى خلفه قل الآنسة هي بيلكور .

سأل . من هي هذه المرأة يا فرديتان .. ألا تعرفها ؟

فهتف الخادم :

ـ وكيف لا أعرفها يا سيدي .. انها الموظفة سبيل ديشيه .. ابنة أخت الوزير الغائب روبسبير ..

ـ دعها تدخل ..

ودخلت سبيل ..

كانت فتاة شقراء حسناء . لها عينان بريئتان كعيون الأطفال .. لها جسم نحيل . ولها قامتها القصيرة .. ولعلها ارتدت الاستقامة من هذا النقص الطبيعي . فزينت رأسها بقبعة عليها أكليل مرتفع من الريش ..

وكانت ترتدي ثيابا رثة فقيرة تخسر من سمعة الثوب البديع وكأنما تتم عن تقاطيع بدنها الصغير .

تقدمت وباحدى يديها مروحة لا تنفصل عنها أبدا ويدها الأخرى خالية من الزهور وحيت لابولاك فالتقت عيناها وفي عينيها نظرة ساكرة .. هي نظرة المرأة التي ترى الرجال في حالتها

ـ أنت هنا ..

فوضع لابولاك القلم وهنأ الفتاة بالحرية ، وهو يقول بشيء من البرودة :

ـ انك بزهورك الباسمة ، وربيعك البديعة في منتصف الربيع أيتها الموظفة .

ـ آه .. هذه أول مرة أنال فيها استحسانك .. فيم أنت كيف ترانى

وطارت لعينه .. لكي يراها من الأمام والخلف . ومن قمة رأسها الى أخمص قدميها .

اجاب :

ـ اراك ساحرة ايتها المواطنة . انك تذكرينني بديانا الهة الصيد عند اليونانيين

ـ انت تطريني ما اعجب ان يطرى ، لابولاى ، احدى النساء .. لاتك ان العالم يقترب من نهايته .. ولكن خبرني يا صديقي .. ما وجه الشبه بيني وبين الهة الصيد ؟

فاجابها ببرود :

ـ انت تشبهينها بثيابك التي يخلق بك ارتداؤها في مخدعك او في الحمام لا في الشارع .

فقطبت حاجبيها ، واحمرت وجنتاها .. ولكنها ارادت ان تخفي خجلها ، فالقت باقة الزهر امامه .. وتهالكت على المقعد وقالت وهي تحرك المروحة التي بيدها بسرعة :

ـ يا الهي .. اني اكاد اختنق لشدة الحر يا كارون .

ـ انك تطمئنينني ايتها المواطنة .. فقد خشيت ان تموتي من البرد ..

فاجابت وهي تكظم غيظها :

ـ وماذا ينتظر الانسان في مجلسك غير ان يموت من البرد ؟

فلم يجبها . وقصد الى النافذة .. وراح ينقر باصابعه على زجاجها .

كان قد تعود زيارات سيسيل ديشيه .. واصبح يشمئز من تحكمها ومحاولاتها اغراءه .. وقد زاد نفوره منها في ذلك اليوم .. بسبب رد الفعل الذي احدثه قدومها في ذات اللحظة التي توقع فيها ان يرى ، سوزان ،

ساد صمت محرج . بدده لابولاى اخيرا بقوله :

ـ كيف حال المواطن روبسبير ايتها المواطنة ؟

فاجابت وهي تنظر الى قامته باعجاب :

ـ انه في خير حال .. وقد ذهبنا امسى الى المسرح ..ولكن لماذا تدعوني دائما بكلمة (مواطنة) ؟

فصمتها بعيبه . ثم اجاب برزانة :
ـ اننا نعيش في زمن ليس اكثر فيه من النقد والناقدين ايتها المواطنة .
ـ نحن نعيش في عالم الحرية ايها المواطن .. فالحرية هي شعارنا والا فما معنى النظام الجمهوري ؟
ـ ان حرية العمل تستتبع حرية القول .. وحرية القول تستتبع كثرة النقد ... والنقد امر لا ينبغي ان تستهدف له المرأة العاقلة مهما كان نظام الحياة ونوع الحكم .. وقد يكون من الافضل لك ان تذكري ذلك دائما كلما حدثت اريارتي ايتها المواطنة .
فهتفت في غضب :
ـ لن ازعجك بزيارتي بعد اليوم .
فاحمر قائلا واجاب :
ـ هذا قرار حكيم تستحقين عليه الثناء ايتها .. يا سبحان فالناقدون كثيرون كما قلت لك .
فنظرت اليه . وضحكت بشفتيها دون قلبها . وقالت ساخرة :
ـ وداعا ايها المواطن لابولاي ..
ـ الى اللقاء ايتها المواطنة ديشيه .
وانطلقت الفتاة وهي تحرك المروحة في يدها بسرعة .. ولكنها لم تكد تصل الى الباب . حتى سمعت صوت لابولاي وهو يقول :
ـ انك نسيت زهورك ايتها المواطنة .
فعادت ادراجها . وتناولت الزهور ثم نظرت اليه . وترددت لحظة ثم ردت الزهور الى مكانها وهي تقول :
ـ انني احضرتها لك ياكارون .. وساتركها عندك .. نستطيع ان نكون اصدقاء على الاقل .. اليس كذلك ؟
ـ اصدقاء . وهل كنا غير اصدقاء ؟
فاشاحت بوجهها ولم تجب على سؤاله بل قالت :
ـ لقد جئتك بهذه الزهور .. لان غرفتك مظلمة حزينة ..

وقد خطر لى ان منظرها ربما يرفه عنك .
فقال لى لطف .. وقد تاثر لكلماتها :
ـ الك فتاة طيبة القلب يا سيسيل ..
فطابت نفسها للهجته . وهمت بان تقول له شيئا .. ولكن الباب فتح فى هذه اللحظة ودخل منه الخادم وهو يقول :
ـ توجد بالباب امراة اخرى تطلب مقابلتك ايها المواطن
فرفع لابولاى راسه بحدة . وجرى نعته فى الحال الى سوزان .. واحمر وجهه .. ثم امتقع .
ولم يفت هذا التحول عن عينى سيسيل .. فعطفت على شقيقها
كانت من قبل تعتقد ان جموده لمريزة طبيعية فيه .. اما الآن وقد علمت ان فى حياته امراة اخرى .. فقد استحالت عواطفها نحوه الى غيرة مريرة
سال لابولاى :
ـ ما شكل هذه المراة يا فرديناند ؟
ـ انها طويلة القامة . شاحبة الوجه .. زرقاء العينين . ترتدى ثوبا من الحرير .. وتفوح منها عن بعد مبل رائحة الاوستقراطيين
فقالت سيسيل فى شىء من الخبث .
ـ ان خادمك سريع الملاحظة
ولكن لابولاى لم يلق بالا اليها
كانت هذه الاوصاف تنطبق تماما على الانسة دى بيلكور
قال : دعها تدخل يا فرديناند
ثم تحول الى سيسيل وقال بصوتها فى ادب :
ـ هل تاذنين لى ..
ـ طبعا ... طبعا ..
وانطلقت من الباب وهى تتميز غيظا .. ولم تتمالك عند ما توسطت السلم من ان تفسح السبيل لنزالرة الساحرة . الطويلة القامة التى تمشى مشية الملكات فى غير تصنع او اختيال

- ١٦ -

وعد لابولاى

وقف لابولاى بالباب لحظة بعد انصراف سيسيل ثم عاد الى مكتبه وهو يحاول ضبط شعوره • والسيطرة على مواطفه

وقع بصره على باقة الزهور التى تركتها سيسيل على مكتبه •• فتناولها ووقف بها فى أحد الاركان • وما كاد يفعل ذلك حتى فتح الباب ودخلت سوزان •

ومن عجب انه لم يكد يراها •• حتى ملك سلطانه على نفسه •

احنى قامته لها باحترام شديد • وقال ببرود وتهكم :

ـ اذن فقد جئت أيتها المواطنة •

فاجابت بصوت مرتجف :

ـ لم استطع القدوم قبل الان يا سيدى • كان والدى يستعالى •

ثم استطردت بعد صمت قصير

ـ هل جئت بعد فوات الوقت يا سيدى ؟؟

ـ كلا • فالميكولت دوميريفال لا يزال يستطر المحاكمة •• هل لك فى الجلوس ؟؟

ـ كلا •• اذ ليس فى نيتى البقاء هنا طويلا •

ـ على رسلك ايتها المواطنة •• لقد سعيت الى ارجاء محاكمة الميكولت ظنا منى بان رسالته على الاقل ـ ان لم تكن رسالتى ـ سوف تحملك على القدوم لالقائه •

ـ يسرنى انك ارجأت محاكمته يا سيدى • وقد كان ظنك فى موضعه • فان الوعد الذى قطعته على نفسى بان اكون زوجته • هو وعد شرف يلزمنى بان اصل على معارضته والسعى لالقائه •

فنظر اليها لابولاى بحدة ثم قال :

انني أذكر ايتها المواطنة انني سمعت منك ذات لينه وعد شرف • فلما طالبتك بالوفاء بوعدك هشمت جمجمتي وتركتني أموت على قارعة الطريق •

ـ سيدى •• عندما قطعت على نفسي ذلك الوعد في تلك الليلة كان في بيتي ان افي به •• والله شهيد على ما اقول •

ـ ان ما فعلته بعد ذلك هو خير برهان على صدقك •

ـ كن كريما يا سيدى •• ان والدتي هي التي حملتني على العدول عما اعتزمته •• بدعوى انه مضيع لشرفي •

ـ يا الهي •• كلمة (الشرف) دائما •• ما اعظم الدور الذي تلعبه هذه الكلمة في حياتكم يا معشر النبلاء ؟ • انتم تفعلون ما يروقكم بدعوى ان الشرف يقتضيه •• لما ما يروقكم فانكم تكتفون في الوقت المناسب انه مضيع للشرف فلا تقدمون عليه ••

عمرا اذا كنت قاطعتك ايتها المواطنة •• هل ذكرت والدتك الاسباب التي تبرر عدولك عما اعتزمته ؟

فاجابته وقد آثارها احتقاره :

ـ ان اقوى الاسباب يا سيدى •• في قلبي •• لقد كان لزاما على ان اختار احدى الشرين •• وقد فكرت فوجدت اسمي ارتبطت برجلين •• ورايت أن انقاد الى اقوى الرباطين •

فقال بلطف وقد تبين الموقف الدقيق الذي وجدت فيه نفسها :

ـ وكان اقوى الرباطين •• هو وعدك لدومبريفال •

ـ نعم •• فقد وعدته قبل ان أعدك • • ثم انه ينتمي الى الطبقة التي انتمي اليها • أما انت ••

ـ حدثيني ايتها المواطنة •• التي أعرف ما تريدين قوله •• تريدين ان تقولي انني من الرعاع ابناء الشعب الذين لا يفهمون لكلمة الشرف ووعد الشرف أكثر من المعنى الذي تفهمه الدواب في الحقول

يا الهي .. لقد كنت احسب ان الحوادث علمتكم .. ومحت من اذهانكم هذه العقائد .

لقد رايتم الرؤوس المتوجة تهوى في الاوحال . ولكنكم لم تعتبروا ولم تفهموا بعد . ان اقل الرجال شانا واوضعهم منبتا في هذا البلد ما يزال رجلا تضعه رجولته في صف واحد مع الملك .. الذي لا يمكن في الواقع ان يكون اكثر من رجل بل هو في بعض الاحيان اقل من الرجل العادي

ولكن مالي وللكلام في هذا .. انا لست الان في مجلس الشعب .. والآذان التي تسمعني لم تتعود سماع مثل هذا الكلام .. فلنتحدث اذن في المهمة التي جئت من اجلها

وهنا تذكرت رسالته ورسالة الفيكونت اليها . وقالت :

ـ سيدي .. انني جئت بالمجوهرات التي قلت لك انهـا بالثني .. وقد ذكر لي الفيكونت في رسالته ..

وكفت عن الكلام .. فاتم عبارتها قائلا بلطف

ـ ذكر لك في رسالته ان في الاستطاعة رشوة بعض الأوغاد الجمهوريين .

فانخدعت بهدوئه وعذوبة صوته .. وظنت انه قد لا يمتنع عن ابرام الصفقة . فراحت تضرع اليه . وهو يصغي في هدوء دون ان تنم نظراته وتقاطيع وجهه عما يدور بخلده او يعمل في نفسه .

واخيرا وضعت امامه على المكتب حقيبة صغيرة .. وتوسلت اليه ان يقبلها ثمنا لحياة دومبريفال .. وطلبت اليه ان يفحص محتوياتها لمعرفة قيمتها .

وعندئذ رفع لابولاى راسه .. فاذا الدم محتقن في وجهه .. واذا الشرر يتطاير من عينيه .

امسك بالحقيبة في يده . وصاح :

ـ اتجهلينني الى هذا الحد يا آنسة ؟

هل قيل لك انني رجل يبيع رجولته وضميره ؟ هل قيل لك ان شرفي رخيص يشترى ببضع قطع من الزجاج ؟ ام لعلك

ظننت ان رجال العهد الجديد ما داموا لا يتشدقون بكلمة الشرف فهم لا شرف لهم ..
يالله ار !
وقذف بالحقيبة تحت قدميها .. وتناثرت لآلئها ..
قال بصوت رنان وبلهجة حاسمة :
ـ أيتها المراهقة .. انك تجنيت مناعب السفر بلا جدوى .. اذ لا سبيل الى التفاهم بيننا بعد الآن .
فانكمشت أمام غضبته .. وهي التي كانت منذ لحظة عادلة سيطرة على عواطفها

لم تلق بالا الى الاحجار الكريمة التي انتثرت تحت قدميها كان كل اهتمامها منصرفا الى هذا الرجل الذي أدهشها بمظاهر قوته ورجولته ونبله .
على انها ما لبثت ان تذكرت ـ دوميريفال ـ والمهمة التي جاءت لأجلها . فجمعت اطراف شجاعتها . وتقدمت الى الامام خطوة .. ثم ركعت على ركبتيها تحت قدميه وقالت :
ـ اعف عني يا سيدي .. انني لم اقصد الى اهانتك .. وكيف اقصد الى اهانتك وكل رغبة في ارضائك ؟ ! فكر يا سيدي في انني انما تجشمت مشاق السفر من المانيا لانقاذ ذلك الرجل لان شرف .. لانه خطيبي وتذكر انك وعدتني في رسالتك بانك قد تمنحني حياته ..
ـ هذا صحيح . ولكنك اخطأت الفهم .
ـ اعف عن خطئي ياسيدي .. هانذا جانية تحت قدميك .. افلا تكفي هذه المذلة ؟ ألا يكفي ما عانيت حتى الآن للتكفير عن اساءتي اليك ؟ ..
ـ ان الاساءات التي انزلتها بي اسرتك لا تكفر عنها آلام جبل بأسره ..

ـ سافعل كل ما تطلبه الي ياسيدي .. فكر في انني التمس منك حياة الرجل الذي سأتزوجه ..
ـ وهل هذه حجة يا آنسة ؟! هل هذه حجة تشفع للرجل الذي عانى في سبيل حبه لك ؟؟

وشعر بسلطانها يطغى عليه .. واحس بان المجد الذى كان يفخر به منذ ساعه ليس شيئا مذكورا فى ميـــزان السعادة .. وان الشيء الوحيد الذى يجعل منه انسانا سعيدا .. هو هذا الشيء ... هو المخلوقة الجاثيه الآن تحت قدميه .

نسى الامه المظلمة .. ونسى رغبته فى الانتقام منهـــا واذلالها . نسى كل شيء عندما سمع هدير دمه فى شرايينه .. وسمع كل نبضة من نبضات قلبه تصيح به انه يحبها .

انحنى فوقها .. وامسك بساعديها باصابع من فولاذ .. وقال لها بصوت اجش :

ـ اذا اردت ان تقدمى الى رشوة لانقاذ حياته .. فهناك شيء واحد اقبله على سبيل الرشوة يا سوزان .

ـ وهـــو ..

فهمس :

ـ هو انت ..

فنظرت اليه فى ذعر .. ثم دفنت وجهها بين كفيها ... وانفجرت باكية .. فصاح

ـ لا تبكى فهمى يا سوزان .. اذا اردت ان يجـــر دومبريفال وان يبرح فرنسا فى سلام فيجب ان تفترى عى .

فكفت عن البكاء فى الحال وصاحت

ـ افترى بك ؟؟

وشعرت بسعادة غامضة . ولكن هذا الشعور ما لبث ان تلاشى

قالت وهى تبكى :

ـ لا استطيع يا سيدى . لا استطيع .

فنظر اليها فى شيء من الدهشة .. ثم هز كتفيه ومشى الى النافذة .

اطل منها على الجماهير التى ازدحمت على جوانب الطريق للشماتة بالبلاء وهم فى طريقهم الى ساحة الاعدام . وسمع بعض اللوم يترنمون بشنيد المارسيليز فقلب شفته باحتقار وتحول الى زائرته وقال :

ـ اينها المواطنه ·· يؤسفني انك تجشمت مشاق السفر على غير جدوى ·

فدنت منه وهي تقول :

ـ سيدي ·· انك لست من القسوة بحيث تتركني ادهم كسفة البال

ـ وباي حق تطالبيني بان افعل شيئا من اجلك ؟

ـ باي حق ؟

واضطرب صدرها عنيفا · ولكنها هتفت على الاثر :

ـ بحق الحب الذي اعترفت لي به ·

ـ انه حق ظريف ·· وحجة قوية ·· من شأنها ان تقنعني باطلاق رجل آخر بين ذراعيك محلي

نعم ·· يجب أن أفعل ذلك لاني احبك ··

فهمت بان تجيبه ·· ولكنها سمعا في هذه اللحظة متالق الجموع المحتشدة في الطريق ·· فارسل لابولاي بصره من النافذة · ثم قال وهو يشير باصبعه الى احدى مركبات المحكوم عليهم بالاعدام ·

ـ انظري أيتها المواطنة

فاقتربت من النافذة · واطلت ·· فرات الجماهير في الشارع تلوح بايديها نحو المركبة السوداء ·· مركبة الموت ·· وهي في طريقها الى « الجليوتين »

كانت تحف المركبة فرقة من رجال الحرس الوطني ·· ثم فرقة اخرى من فارسي الطول ·· ورات سوزان في المركبة المشئومة ثلاثة رجال وامرأتين ·· وقد من اولئك القسيس الذين اقسموا اليمين التي فرضها عليهم مجلس الشعب ·· وبذلك نجوا من الطرد والسجن

واما المرأتان فكانتا في حالتا الماء من فرط الرعب · واما الرجال فقد وقف احدهم هادئا رزينا لا يعبأ بما حوله ··· وركع الثاني وراح يصلي ووقف الثالث يرد على اهانات الجمهور بمثلها

كانوا جميعا في مقتبل العمر ·· وتدل مظاهرهم على انهم من النبلاء

ابصرت سوزان هذا المنظر · وتكمنت على عقبيها مدعورة سألت :

ـ لماذا طلبت الى أن أظل من الوقفة ؟

فاجابها بغير شفقة :

ـ لكي تبصري الطريق الذي سيمر به عشيقك في رحلته الأخيـــرة

ـ يالهي ·· هذا مخيف ·· هذا مخيف ·· انكم لستم رجالا أيها الثوريون ·· أنتم وحوش · انتم نمور في جلود الآدميين

فهز كتفيه واجاب :

ـ ان للظالم العظيمة تحدث رد فعل عظيم ·· والاخطاء الفادحة تقابلها اخطاء مثلها ·· لقد كانت للنبلاء سلطـــة عظيمة فاساؤا استعمالها ونال الشعب الفرنسي قرونا عديدة يئن تحت نير النبلاء ·· وهؤلاء يدوسونه تحت حوافر جيادهم ·· ويسفكون دمه بغير حق ·· الى ان ارتوت الارض بالدماء وانبتت لمرة متعطشة الى الدم ·

نحن معشر ابناء الشعب لسنا اقسى منكم يا معشر النبلاء ·· كل ما هنالك اننا نعمل في وقت وجيز ما ظللتم تعملونه طيلة الاجيال الماضية ·

فصاحت سوزان وقد استردت شجاعتها :

ـ دعنا من النقاش في هذا ياسيدي ·· انني ارى مـــا تفعلون ·· ولكن ··

وهنا لانت نبرات صوتها واستطردت

ـ ولكنك ياسيدي رجل كبير القلب كـــريم · وفي استطاعتك ان تكون نبيلا ·· فامنحني الحياة التي وهبتني بها

ـ انني امنحك اياها بشرط انها الانسة ·· وقد ذكرت هذا الشرط ·

فنظرت طويلا الى وجهه الهادئ، وعينيه السوداوين وصاحت :

- وترحم مع ذلك انك تحبني ؟

- وا اسفاه .. هذا الحب نفسه ضعف في نفسي لا استطيع التغلب عليها .

- ضعف نفسه يا صديقي لابولاي .. وانظر الى قلبك تشعر بقوته .

انت لا تحبني .. ولكنك تحب نفسك .. ونفسك فقط .. وهو احبني ما ظفرت في الاسيذ على رغم ارادتي .. لو احبني حب صديقنا لسن نون ما نظر فيه وسعى اليه وهو اصدق ..

وتحب - كما قلت لك - لا تحبني .. ولا تفكر في غير الاسيذ على قوته وظهرا ارضه لقدمك

فظل يحدق لا يتحرك ... ثم تنهد ونهض الى النافذة

لم ير الجموع الزاحرة تتدارج في الطريق .. ولا اركبات السود، كان يفكر ، ويطوي عاصفة ارادته سوزال

راح يعذب نفسه .. وخرج من هذا العذاب بانه لا يحب الا نفسه .. ولكنه يحبها حب قوي صادقا يهيب به ان يعمل - رغم كل ما حدث - على استرداد ارادتها .

على انه لم يكد يحزم رايه حتى سمع حركة وراءه .. فتحول ورأى نتاشا عند الباب ..

صاح - ياسيدي ..

فتحولت اليه ورأى الدموع تتحدر من عينيها .

سألت : الى اين انت ذاهب ؟

- سأعود من حيث جئت ياسيدتي ..

فتمتم بجيبه في صمت . ثم تقدم الى الامام خطوة وقال:

- ياسيدتي انني اقنعت بحجتك .. فلتكن ارادتك ... سيكون مراح الجيوش نوفمبريفال .

فتمتم وجهها فجاه . ورفعت منديلة لا تعي ما سمعت .. ثم اقبلت عليه وهي تقول :

ـ الم اقل انك طيب القلب وكريم ياسيدى ؟ الم اقل انك تستطيع ان تكون نبيلا ؟!

وامسكت يده ·· وارادت ان ترفعها الى شفتيها وهى تقول :

ـ بارك الله فيك ياسيدى ·

ولكنه احتفظ بيده بلطف وقال :

ـ فلنترك الكلام فى هذا الآن اين تقيمين ؟!

ـ انا اقيم مع مربيتى المجوز فى (شوازى) · واسمها (مدام مارى جودلير) ·· وهى معروفة فى القرية ومحبوبة من اهلها ·· ولذلك استطيع ان اعتبر نفسى فى مأمن ·· فالجميع يعتقدون انى ابنة اخيها ·· وانى جئت من الاقليم لزيارتها ·

ـ ابنة اخ المواطنة هنريت جودلير لرتدى الثياب الحريرية ؟؟

لقد سأل احدهم مربيتى فى ذلك ·· فاجابت بان الثياب التى ارتديتها قد نهبت من قصر احد النبلاء

ـ كونى على حذر يا سوزان ·· فهذه اوقات عجيبة خطرة ·· ومنذ اسبوع مزق الغوغاء احد الناس شر ممزق ·· لانه كان يضع فى يديه قفازا ·· كما كان يفعل النبلاء

والآن ·· هلمى بنا نلتقط مجوهراتك يا آنسة فقد كدت تنسين بدونها منذ لحظة

وجثا على ركبتيه ·· واخذ يبحث عن المجوهرات ويضعها فى الحقيبة وساعدته سوزان فى ذلك

ثم رافق الفتاة الى الباب · وهناك قال لها :

ـ انى ارجو ان تثبت بالفيكونت لهذا الى (شوازى) ·· وسابذل جهدى لتزويده بجواز مرور تتمكنان به من مغادرة فرنسا فى سلام ·

فاردت ان تشكره ولكنه اسكتها

وبعد انصرافها جلس لاسولاى امام مكتبه · واحنى راسه بين كفيه · وظل فى تلك الجلسة حتى دخل عليه خادمه وسأله هل تريد مصباحا ؟

- ١٧ -

العلبـــة

دخل لابولای الغرفة الصغيرة المتواضعة التي اتخذ منها روبسبير مكتبا ومخدعا وقاعة للطعام • فوجد هذا الرجل الضعيف البصر الذي كان يستمتع في ذلك العهد بنفوذ لا يستمتع بمثله رجل آخر في فرنسا والذي اشتهر بصلابته فيما يتصل بحقوق الجمهورية وعرف بأنه (الرجل الذي لا يبيع ضميره ولا يقبل الرشوة) •• وجد هذا الرجل غارقا في كومة من الاوراق •• وفي يده قلم يوقع به على بعض الاوراق الرسمية وقد رآه روبسبير فوضع القلم • ورفع • عوينانه • واستقبله بقوله :

ـ اهذا انت يا كارون •

كان صوته هادئا رقيقا خليقا به كرجل رحيم آثر ان يعتزل منصبه كقاض في (اراس) على أن يصدر حكما بالاعدام على متهم يعتبره بريئا • ولكنه لم يكن خليقا به كنائب عام اطاح بمئات الرؤوس في محاكمات الدماء

فنظر روبسبير :

ـ لقد وددت ان اهنئك بالفوز الذي احرزته في المجلس امس كما هنأت نفسي بأنني الذي وجدتك واكتشف مواهبك واهديتك الى الامة •• ولقد كنت اخشى الا اتمكن من مقابلتك قبل سفرك

فسأله لابولای دون ان يعبأ باطرائه :

ـ هل في ينيك مغادرة باريس ؟

ـ نعم •• سأغيب عنها بضعة ايام لشأن من شئون الامة •• ولكن حدثني عن نفسك • الا تعلم التي لخطور بك يا عزيزي كارون ؟ ان ذلاقة لسانك جعلت (دانتون يمتلع غيرة وحسدا •• يا الهي •• اذا استمررت كما بدأت فسوف

باتي يوم تصبح فيه اقوى اعوانى ٠٠ بل وقد تصبح اقوى منى
فاجاب لابولاى على هذا الاطراء بلباقة ٠ وقال :
ـ انا سعيد الحظ اذا استطعت مقابلتك قبل سفرك بامكسيليان لأنني اريد ان اسالك معروفا
ـ وهل بيننا (معروف) يا كاروف ؟ ٠ افصح عن رغبتك واعتبر حاجتك مقضية اذا كان فى استطاعتى قضاؤها
ـ يوجد فى سجن لكسمبورج سجين يهمنى امره ٠ واود ان يطلق سراحه
فصاح روبسبير : اهذا كل ما هنالك ؟
وتناول ورقة مطبوعة ، تتضمن امرا باطلاق سراح سجين ٠ وسأل وهو يوقع باسمه على ذيل الورقة : ما اسمه ؟
فاجاب لابولاى فى شيء من التردد : انه من النبلاء ٠
فقطب الديكتاتور حاجبيه وفكر لحظة ثم قال
ـ من النبلاء ؟ لا باس ٠٠ ان عندنا رؤوسا كثيرة ٠٠ لا مانع من الابقاء على احدها ٠٠ ما اسم الرجل ؟
ـ اله الفيكونت ، انا تول دومبريفال ، ٠
ـ من هو ٠٠ ؟؟
انطلقت هاتان الكلمتان من فم روبسبير كانهما رصاصتان واقلبت سحنته القلابا مخيفا وصاح :
ـ دومبريفال ؟ ولكن ما صلتك بهذا الرجل ؟ انني لم ار بين على حياته حتى الآن الا من اجلك ٠٠ أما الآن ٠٠
وصمت قليلا ثم سأل بحدة :
ـ ما وجه اهتمامك بهذا الرجل ٠٠ ؟
ـ ان اهتمامى به عظيم ٠٠ ولذلك جئت لأسألك ان تطلق سراحه ٠٠
فوضع روبسبير ، عوينته ، فوق انفه ، وتلاشت من وجهه ملامح الوحشية التى ارتسمت عليه منذ لحظة ، وقال بصوت هادىء مثلج :

ـ انني شديد الاسف يا عزيزي كاروون .. ولكنك طلبت الى حياة الرجل الوحيد في كل سجون فرنسا الذي لا استطيع العفو عنه ..

انه من (ارتوا) .. وبين عائلته وعائلتي ثار قديم .

انهم كانوا السادة في البلد الذي ولدت فيه .. ولو سردت عليك الفضائح والمظالم التي ارتكبوها لارتجف جسدك هولا . فلا امل الذي من أن يظفر هذا المخلوق عن آثامه وآثام اسلافه .. ومن اجل ذلك لمرتك بالقاء القبض عليه فكن جسورا يا كاروون .. ومعذرة اذا كنت لا استطيع اجابتك الى ما تطلب ولكن لك ان تطالبني بحياة اي لبيل آخر ، او بحياة عشرة من النبلاء ، فامنحك اياها عن طيب خاطر ..

اما دومبريفال فيجب ان يموت ..

وقف لابولاي مذهولا مشدوها .

ها هي ذي عشيقة لم يحسب لها حسابا عندما وعد سوزان باطلاق سراح حبيبها ..

وراح يجادل روبسبير ويضرع اليه قائلا انه وعد بانقاذ العشيقة ويجب ان يفي بوعده ..

وصاح اخيرا :

ـ اذا اعدم هذا الرجل لفقدت شرفي ..

فاجابه روبسبير :

ـ ما يؤسفني له انك اوقعت نفسك بمثل هذا الوعد .. ولكن يجب ان تعترف يا كاروون انك كنت متعجلا ..

ثم (فرك) الورقة التي تتضمن الامر باطلاق سراح السجين والقاها على الارض ، واستطرد :

ـ ومهما يكن من امر فان في استطاعتك ان تتخلص من وعدك بطريقة ما ..

فلطم لابولاي جبينه وراح يقبض اصابعه ويبسطها بحركة عصبية ..

لان يخيل للناظر اليه انه يحدث نفسه بالانقضاض على روبسبير .. وارغامه باكثرة على اجابة مطلبه ..

ولكن حدث في هذه اللحظة ان فتح الباب .. وسمع لاوولاى صوتا يهتف :

ـ انت هنا حقا يا كارون .. !؟

فتحول لاوولاى ، ورأى سيسال ديشيه ، واوشك ان يلعنها لقدومها في تلك الساعة ، ولكنه كظم غيظه واجاب باختصار :

ـ نعم أيتها المواطنة .. التي جئت للتحدث الى خالك ..

فقال روبسبير وهو ينهض تخلصا من ذلك الموقف :

ـ لقد انتهى الحديث على كل حال .. تعالى يا سيسيل لجالسة العزيز كارون ريثما أعد عودتي للمنزل ..

فلقد لاوولاى غرضه .. وودعه ، والصرف ترافقه سيسيل فقالت له وهما يسيران جنبا الى جنب :

ـ الا تتناول طعام الغداء معنا يا كارون !؟

ـ يؤسفني أنني ..

ـ كلا .. انني لا أقبل اعتذارك .. لقد افتقدت ظهور منذ جئت لزيارتنا ..

ونظرت اليه من طرف عينها نظرة ساحرة جذابة ، ولكن لاوولاى كان في تلك اللحظة كأنه تمثال من رخام ..

فقال لها :

ـ ان لدي من الاعمال الهامة ما يضطرني الى الانصراف .

فتأبطت ساعده وقالت :

ـ في الاستطاعة ارجاء اهم الاعمال .. تعال يا كارون ، وحدثني عن الزائرة الحسناء التي قابلتك أمس .. أتعرف ان منظرها ملأني غيرة ؟ .. كان ذلك حقا مني بغير شك .. أليس كذلك .. ؟

وهنا ضاق بها لاوولاى ذرعا .. للخلاص ساعده من يدها بعنف وخشونة ، والطلق دون ان يرمقها بنظرة او يحييها بكلمة ..

وشيعته الفتاة بعينين صارمتين كالفولاذ .. وهمست :

ـ صبرا يا كارون .. فسوف أنتقم .

- ١٨ -

السرقة

جلس لابولاى امام مكتبه رجلا يائسا محطما .. لقد حطمته الهزيمة واوجعت صدره ..

كان من قبل مطمئنا الى ان روبسبير لن يرفض له سؤالا .. ولهذا وعد سوزان وهو واثق من نفسه ، ووعدها في خياله الرجل الذى يعرف ما يقول .. فلماذا يصنع الآن .. ؟

ان الخجل والحياء يمنعانه من ان يقف امامها الآن ذليلا معترفا بعجزه وقصر يده .. وهي بعد . لن تصدقه مهما انتحل من الاعذار وسوف تعتقد انه قادر على القاذ خطيبها ، ولكنه يريد تضخيم صنيعه ، او الامعان في اذلالها لتسلمه نفسها .. واذا صدقته فسوف تعود كسيرة القلب والفؤاد بعد رحلة شاقة شجعها بنفسه على القيام بها ..

كلا .. كلا .. يجب الا يكون هذا او ذاك ..

انه وعد ويجب ان يفى بوعده .

يجب الا يكون الوفاء بالوعد صفة يمتاز بها النبلاء وحدهم .

وضرب المكتب بقبضة يده ، واخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابا ..

واخيرا وقف في مكانه ، ولمعت عيناه فجاة ..

حزم رايه على امر .. نعم .. انه سيفى بوعده سواء رضى روبسبير او لم يرض .. وسواء وافق او لم يوافق ..

فصاح روبسبير :

تذكر الورقة التي وقع عليها روبسبير بامضائه لم فركها والقاها على الارض ..

لقد سافر روبسبير الآن .. وليس من المتعذر عليه ان يدخل غرفته ..

اواه .. لو استطاع فقط ان يحصل على هذه الورقة ويكتب عليها اسم دومبر بفال ..

اذا فعل انتهى كل شيء ..

صحيح انه ينبغي ان توقع الورقة بامضاءات ثلاثة نواب آخرين ولكن هذه مسألة ميسورة .. ما دام اسم روبسبير موجودا في ذيل الورقة ..

ثم لاحت له العواقب فجأة .. كما لاحت له الطريقة ..

سيكون لغضب روبسبير عظيما بغير شك متى وجد ان ارادته قد ضرب بها عرض الحائط .. وعظم بالمزوير الذي ارتكب لانقاذ الفيكونت ..

ولغضب روبسبير في سنة ١٧٩٣ . معناه ان تهتز الارض والسماء .. وتحشد الجنود . وتفتح السجون ابوابها . وتنصب آلات الاعدام وتهوى الرؤوس ..

فكر لابولاى واحتبست انفاسه ..

انه اذا قدم على هذه الفعلة فيجب ان يفر بعدها من فرنسا ويضرب عرض الافق بمركزه ومجده وبالمستقبل العظيم الذي ينتظره . ويقضي بقية حياته لقمة شريدا في بلد اجنبي .

فهل تستحق سولانج دي بيلكور او اية امرأة في الوجود مثل هذه التضحية .. ؟

ولماذا فعلت سولانج من اجله لكي يفعل كل هذا من اجلها ؟

انها اعترفت له مرة بانها تحبه .. ثم خدعته . فهل تستحق هذه المرأة ان يضحي في سبيلها بكرامة الفكر ؟

ولكنه ما لبث ان ابتسم في تهكم وقال لنفسه :

ايها الاحمق .. انك لا تقدم على هذه التضحية لمكانتك في قلبها .. ولكنك تقدم عليها لمكانتها هي في قلبك ..

وانصرف لابولاى بعد ان امر خادمه باعداد عربته . وقصد لتوه الى بيت روبسبير وسأل الخادمة التي فتحت الباب :

ـ هل سافر المواطن روبسبير .. ؟

فاجابته الخادمة :

ـ انه سافر بعد انصرافك ايها المواطن لابولاى .

فهز لابولاى راسه . وقال متصنعا الانزعاج :

ـ يا للشيطان ! انني نسيت في غرفته ورقة هامة ولا شك ان الغرفة مغلقة الآن ..

فاجابته الخادمة ، وكانت تعرف صلته الوثيقة باصحاب الدار :

ـ نعم .. ولكن المفتاح مع المواطنة سيسيل .

ـ احقا ما تقولين ؟ هذا من حسن الحظ .. هل تستطيعين احضار المفتاح من المواطنة سيسيل ؟ ان مهمتي لا تستغرق وقتا طويلا .. قولي لها انني اطلب المفتاح ..

ـ سافعل ذلك ايها المواطن . تفضل بالدخول ..

وصعد لابولاي السلم الى الر الخادمة ، ثم تركته الخادمة وانطلقت الى غرفة سيسيل ، وسمع لابولاي همسا .. وعادت الخادمة اخيرا ومعها المفتاح ..

وما هي الا لحظة حتى كان لابولاي في غرفة روبسبير .

اجال الطرف بسعة ويسرة .. ثم لاحظ ان الخادمة تنتظر بباب الغرفة ولعلها امرت بان تفعل ذلك .. ولكنه لم يشأ ان يدعها تراه وهو يفحص الاوراق المهملة فقال لها :

ـ ربما استغرقت مهمتي بضع دقائق .. وساعود متى فرغت منها ..

فادركت الخادمة انه يريدها على ان تنصرف ، ولم يسعها الا الطاعة ..

واغلق لابولاي الباب ، واسرع الى حيث توجد الاوراق المهملة ووجد الورقة المطلوبة ..

كانت تتضمن امرا الى محافظ سجن لكسمبورج باطلاق سراح سجين او سجناء ..

وكان موقعا عليها بامضاء مكسيليان روبسبير .

تناول لابولاي القلم .. وكتب على الورقة في المكان الخاص باسماء السجناء : (انالول دومبربفال . فليكونت سابقا)

وفجأة .. خيل اليه كان الدم قد جمد في عروقه .. وشعر بالعرق البارد ينصبب على جبينه ..

ذلك انه سمع وراءه حركة طفيفة ، واحس بانفاس حارة تلفح رقبته ..

كان هناك شخص يطل من فوق كتفه .

تحول فجاة ، ووجد نفسه وجها لوجه أمام سيسيل دوريشيه

* * *

قالت له بصوت خافت ولكن بحدة ووحشية :

ـ ايها اللص .. هل هذه هي الورقة التي تبحث عنها في غرفة خالي ؟

وكان لابولاي قد ملك نفسه وتغلب على الرعب الذي استولى عليه اول الامر ، فاجاب بهدوء :

ـ لا شك ان هذه هي الورقة التي تركتها في هذه الغرفة ، اما كلمة (لص) التي تكرمت بها علي ..

وثارت ، ثم هز كتفيه فصاحت :

ـ ايها الاحمق ، هل تظن انك تستطيع ان تخدعني بهز كتفيك وبعباراتك المزوقة .

ـ يا عزيزتي سيسيل ، هل لي ان ارجوك في ان تختاري الالفاظ قبل النطق بها ؟

ـ آه .. انت الآن تسخر مني ، سيسيل .. و .. عزيزتي سيسيل ، بدلا من ، ايتها المواطنة ، .. لانك تحتاج الى .. وتريدني على ان اكتم على خيانتك .

فقال ضاحكا :

ـ يخيل الي انه قد قدر لي الا تفهميني ..

فادهشها ان يضحك .. على انها لو نظرت في عينيه في تلك اللحظة ، لرات فيهما نظرة مجرمة شريرة ..

نعم .. انه كان على استعداد لارتكاب جريمة قتل ـ اذا لزم الامر ـ لكي يخرج بالورقة التي تجثم في سبيلها كل هذه المتاعب .

صاحت سيسيل وقد احمرت وجناتها غضبا وحنقا :

ـ اني افهمك حق الفهم ايها اللص ، المخادع ، هل تظن انني لم اسمع شيئا من الحديث الذي دار اليوم بينك وبين

حالى ؟ هل نظن انني لا اعرف الاسم الذى كتبته على هذه الورقة ؟ اجبنى .

فاجابها ببرود وهو يضع الورقة فى جيبه :

ـ ما دمت تعرفين كل هذا . فلماذا تسألين ؟! وما دمت لا اعارض شيئا من اقوالك . افلا ترين من الافضل وضع حد لهذا الموقف العقيم ؟! يا عزيزتى سيسيل ، انا شاكر لك انك اعطيتنى مفتاح الغرفه . ومتى عاد خالك فارجو ان تبلغيه تحيتى .

وتحرك لينصرف . ولكنها وقفت فى طريقه وصاحت :

ـ اعطنى هذه الورقة ايها النذل . انك لن تتصرف بها .. اعطنى هذه الورقة والا استنجدت بخادمنا « دوبلاى » .

فاجابها بلطف :

ـ استنجدى بالشيطان اذا شئت .. فذلك لا يهمنى .. اتظنين اينها الحمقاء ان دوبلاى يجسر على ان يمسنى تاليا من نواب الشعب اثناء قيامه بعمل يتصل بشئون الامة ؟!

ـ هذا كذب .. انت لا تقوم الآن بعمل يتصل بشئون الامة .

ـ صدقت ولكن دوبلاى لا يعلم ذلك .

ـ ساقول له كل شىء .

ـ انه لن يصدقك واذا صدقك هددته بالجليوتين .. كلا .. كلا يجب ان تكونى عاقلة حكيمة .. وان تفسحى لى الطريق .

ـ اعطنى هذه الورقه .

وامسكت بساعده .. فدفعها عنه بعنف وهو يقول :

ـ انك مخلوقة مزعجة . دعينى اذهب .

وارتكت الفتاة ان تسقط ولكنها احتفظت بتوازنها فى اللحظة الاخيرة .. ووثبت نحو الباب واغلقته بسرعة .. ووضعت المفتاح فى جيبها وهى تقول :

ـ انك لن تبرح الغرفة حتى تترك الورقة .

فعقد ساعديه فوق صدره وقال بلهجة السخرية :

ـ يا عزيزتي سيسيل .. انا كنت لا تكترثين لشعوري .. فليس اقل من ان تكترثي لسمعتك وشرفك .

انك جننت بغير شك ايتها المراة .. اتريدين ان يقال غدا في باريس انك ضبطت معي في غرفة مغلقة ؟ ماذا يقول خالك الشريف المحترم الوقور متى علم بذلك ؟

انه لا يكون الرجل الذي اعرفه . اذا لم ينزل بك اشد العقوبات لانك اضعت شرفه .. ولوثت سمعته .

كلا يا فتاة .. من الخير لك ان تفتحي الباب قبل ان يفوت الاوان .. وقبل ان يفاجئنا احد في هذا الموقف المحرج .

* * *

عرف لابوراي كيف يضرب على النغمة التي تبلبل غرضه .. فقد امتقع وجه الفتاة خوفا بعد ان احمر غضبا ثم انقلبت سحنتها وتغيرت بشاشتها .

اسقط في يدها . وغلبها الغيظ والغيظ فتهالكت على مقعد قريب وتركت لعبتها يسيل من عينيها دموعا محرقة .

واخذته الشفقة بها .. وركع بجانبها . واحاط خصرها بساعده . واجذبها اليه كما لو كانت طفلا يريد ارضاءه والتخفيف من حزنه .

ولكنها لم تكد تشعر بساعده حول جسمها . وبجسمها لصق جسمه حتى اساءت تاويل غرضه . واستعطت عواطفها الكظومة . فاستندت بكل جسمها على صدره . وانفطع بكاؤها فجاة كما بدا .

قال لها في رفق : والآن اعطني المفتاح يا سيسيل .

فرمقته بنظرة خجل كانت اشبه ببزوغ الشمس من بين السحب . وتمتمت :

ـ لا يوجد شيء لا اعلمه من احد يا كارون ساساعدك حتى على خيانة خالي . انك تحبني يا عزيزي كارون . اليس كذلك؟

فشعر كارون بقشعريرة باردة تجري في كل جسمه .. واحس بالكبة الجديدة التي جلبها على نفسه .

سقط ساعده الى جنبه . وتهدر واقفا . وعندئذ فقط ادركت

الفتاة خطاها . وازداد شعورها بهـــذا الخطأ حين تطلعت الى وجهه .. ورأت نظرة الاستنكار والاشمئزاز التي ارتسمت ل عينيه .

نهضت بصورها واقفـــة . وتراجعت الى الوراء خطوة او خطوتين . ثم ألقت بالمفتاح على الارض وقالت بصوت مختنق :

ـ اذهب .. ودعني لا أرى وجهك بعد الآن

فتردد لابولاى لحظة .. ثم ألقى عليها نظرة اشفاق والحنى والتقط المفتاح .

وارتمت الفتاة على أحد المقاعد .. وشيعته ببصرها . ثم تبعته بسمعها حتى تلاشى صوت وقع أقدامه .. وعنـــدئذ دفنت وجهها بين كفيها وبكت غيظا وقهرا ومذلة .

ـ ١٩ ـ

وقف « دومبريفال »

كان لابولاى أجهل النـاس بطبائع النســاء .. ولـكنه كان أعلمهم بطبائع سبـيل .. وقد أدرك ان هذه المرأة المفترسة التي نبذها .. وصدها واحتقرها .. لن تقعد عن الانتقـــام لكرامتها المهينة .. ولن يهدأ لها بال حتى تبطش به .. كما يجب ان تبطش برجل ترى وجوده مصدرا لخجلها . وعارها .

أدرك لابولاى ذلك .. وشعر بأنه يجب ألا يحرص على كل دقيقة .. بل يجب كذلك أن يعجل بالفرار اذا أراد انقاذ نفسه وانقاذ دومبريفال .

كان لا يزال يجب عليه الحصول على توقيع نائبين آخرين بعد توقيعه .. فاستأجر مركبة وانطلق بها الى منزل صديقه النائب بيلوفارين .. وكان يأمل شديدا حين علم ان النائب ليس في منزله ..

ولو قد تكشفت له ساعة واحدة من المستقبل اذن لحمد الله على غياب هذا النائب عن منزله .

استفسر عن مكان النائب فقيل له انه يتنـــاول غداءه في

مطعم (ليلربيه) ، للصد الى هذا المطعم المشهور .. وهناك لم يجد فارين وحده ، بل وجد كذلك صديقه النائب كارنو .

وقد رفع النائبان باسميهما . بجانب تورايعـــه وتوابع روبسبير . ولم يخامرهما شك في الامر .

وبعد خمس دقائق أخرى كان لابولاى في طريقه الى سجن لكسمبورج .

ولم تصادفه في السجن أية صعوبة فقد كان محافظ السجن يعرفه شخصيا وكان أمر الافراج فضلا عن ذلك صحيحا من كل الوجوه .

* * *

كانت سوزان نفرا كتابا حين سمعت صوت لابولاى . فتركت الكتاب واسرعت لاستقباله .. ثم قصدت بالرجلين الى غرفة صغيرة أنيقة .

وكان لابولاى اول من تكلم فقال :

ـ آمل يا آنسة الا اكون قد ابطلت كثيرا

فاجابته وفي عينيها نظرة تعبر عن الشكر والوفاء وعرفان الجميل :

ـ سيدى .. انك كنت نبيـــلا .. ولن انسى صنيعك ما حييت

فاسكتها لابولاى بحركة من يده . اما الفيكونت فانه تقدم الى خطيبته ورفع يدها الى شفتيه وهو يقول :

ـ يا آنسة .. ان مسيو لابولاى قد رفض الافضاء الى بقية من المعلومات .. ولكني واثق من انني ادين بنجاتي لجهودك الطيبة .. وللفكرة الصائبة التي اقترحتها عليك في رسالتي .. واعني بها فكرة شراء حياتي برشوة احد المحبوسين .

فاحمر وجه لابولاى ولكنه كظم غيظه . وقالت سوزان :

ـ انك لا تدين لى .. وانما تدين لهذا الصديق العزيز .. واليه يجب ان توجه شكرك يا سيدى

ـ أحقا تقولين ؟!

وصمد لابولاى بعينيه من قمة راسه الى اخمص قدميه

كان قد استرد حريته . واسترد معها سلاحه وخيلاءه فقال لابولاى فى مرارة :

ـ انى لم أبعث الى الآنسة .. انى قدمتك اليها . كهدية زواج .

وابتسمت شفتاه . اما نظراته فظلت حزينة صارمة .

فراح الفيكونت ينقل البصر بين سوزان ولابولاى دون ان يفهم هذه العبارة ..

وساد بين الثلاثة صمت محرج (مقلق) بيد ان لابولاى لم يكن قد قال كل ما عنده .

تذكر انه نسى جواز المرور فى منزله . وهو جواز مرور مبصوم بالتوقيعات والاختام اللازمة . ولكنه خلو من اسم او اسماء الاشخاص المرخص لهم بالمرور . وكان لابولاى قد تزود بهذا الجواز عند قيامه برحلته الى بلجيكا لمقابلة الجنرال ديموريبه . وتزود به على سبيل الاحتياط للطوارئ .

وكان فى نيته أن يعود الى منزله لاخذ هذا الجواز بعد ان يستولى على أمر الافراج من لحرقة روبسبير . ولم يكن وقتئذ يحسب حسابا لما حدث فعلا بينه وبين سيسيل دبشيه . وكانت النتيجة أنه اضطر الى الاسراع فى اخراج الفيكونت من السجن وتهريبه فلم تتح له فرصة للعودة الى منزله والحصول على جواز المرور .

وقد رأى لابولاى ان من الضرورى ان يوضح الموقف لسوزان وخطيبها . ولم يكن بوسعه أن يفعل ذلك دون أن يعترف بالحقيقة كلها . فمنذ وقعت روبسبير اطلاق سراح الفيكونت الى ان احتال هو على القاذ الفيكونت .

اصغت اليه سوزان فى دهشة .. وذعر .. الى ان فرغ من كلامه .. فهتفت :

ـ يا الهى . وهل من اجل فعلت كل ذلك .. ومن أجل هذا عرضت مستقبلك وعرضت حياتك للخطر ؟

فهز لابولاى كتفيه وقال :

ـ انني اسرفت في النفقة بنفسي حين وعدتك بانقاذ الفيكونت .. فلم احسب حساب روبسبير ورفاقه .. ومهما يكن من امر فانني وعدت وكان يجب ان افي بوعدي وابر بكلمة الشرف التي قطعتها على نفسي .. فلا ادع وسيلة لانقاذ الفيكونت دون ان الجأ اليها ..

فضحك دومبريفال وقال :

ـ يا الهي .. رجل من الرعاع يفهم وزنا لكلمة الشرف ؟ انك في الحق احدى العجائب ..

فقالت سوزان بسرعة .. وبصوت يرتجف قلقا :

ـ علوا يا سيير لابولاي .. ان الفيكونت يقصد الى ضرائك .. ولكنه لا يحسن اختيار الاسلوب والعبارات .

فابتسم لابولاي ابتسامة كالحة وقال :

ـ مما يؤسف له ان الفيكونت لم يتعلم درسه .. فشانه شان المسرف الذي ما يكاد يبرأ من سقمه حتى ينسى الاسراف الذي كان سببا في مرضه .

مهما يكن من امر فان الوقت لا يتسع لمثل هذا الجدل العقيم .. والمهم الآن ان اعود الى باريس للحصول على جواز المرور . قبل ان يكتشف الامر وتنهض في سبيل عقبات اخرى .. ومتى جئت بجواز المرور اصبح الباقي سهلا وميسورا .. فلا يبقى امامكما من المتاعب الا ان تحتملا صحبتي وحراستي معكما حتى نصل الى الحدود .

وقد رافقته سوزان بنفسها حتى الباب الخارجي .. وهناك قالت له بصوت يرتجف من التاثر والانفعال

ـ سيدي .. ارجو الا تجد في قصوري عن شكرك دليلا على الجحود . والواقع ان كرمك ادهشني .. ولعل صنيعك اعظم من ان اعبر عنه بعبارات الشكر المألوفة .

فقال ضاحكا :

ـ صه . انني لم افعل غير نصف ما يجب عمله .. وسوف يجدني متسعا من الوقت لشكري حين نعاود نا فرنسا .

فصاحت :

ـ يا الهي .. اتتكلم عن مغادرة فرنسا بمثل هذه البساطة؟ ماذا سيكون امرك في خارج فرنسا ؟ وملاذا يكون مصيرك ؟

فاجاب ضاحكا كذلك :

ـ من يدري .. فربما راق للشعب الالماني او للشعب الانجليزي ان يغير نظام حكومته .. فاساهم مع الثائرين .. واصبح ثائرا مرة اخرى ؟

والصرف لاوزلاي بعد ان عبر عن رجائه في ان يعود قبل انقضاء ساعتين .. وشيعته سوزان ببصرها حتى غاب عن عينيها .. ثم عادت الى الغرفة فوجدت لخطيبها واقفا امام النافذة وفي عينيه نظرة متألقة .

لم يقل لها شيئا مما كان يتعين على رجل في مثل مركزه ان يقوله .. بل استقبلها شاكيا متبرما . قال :

ـ هل تسمحين لي يا آنسة فالتول لك انك لم تفكري في هذا الموضوع خير السبل .

ـ عن اي موضوع تتكلم ؟

ـ عن موضوع اطلاق سراحي .. لقد طلبت اليك في رسالتي ان تبتاعي حريتي .. فلو انك فعلت ذلك .. اذن لحصلت لحسابك على جواز مرور .. ولكان في مقدورنا ان نرحل في الحال .

اما الآن فاننا لسنا فقط مضطرين الى انتظار عودة هذا المخلوق .. بل سنضطر كذلك الى احتمال صحبته الثقيلة . وزمالته الغادرة طيلة ايام السفر ..

فطفقت الدهشة لسان سوزان . وظلت وقتا لا تستطيع الكلام . واخيرا قالت :

ـ اهذا وفاؤك ؟ اهذا شكرك على ما تحملت من عناء وما استهدفت له من اخطار في سبيل انقاذك ؟

- ٢٠ -

الاعتقـــال

جاءت الحوادث مصداقا لما توقعه لابولای . فانه لم تكد تنقضي ساعة حتى كانت سيسيل قد حزمت رايها على أمر .. فانطلقت لساعتها الى منزل النائب ، ببلو فارين ، صديق روبسبير ومساعده الايمن .

ولكن النائب لم يكن وقتئذ في منزله فاضطرت سيسيل الى انتظاره وخطر لها اكثر من مرة ان تلجا الى نائب آخر .. لولا انها ظلت نفس النفس بان ، فارين ، قد يحضر بين دقيقة واخرى .

واخيرا حضر النائب . فحدثته سيسيل بما كان بينها وبين لابولای وكان النائب يعرف الشيء الكثير عن هوسها ..ولكنه تذكر أن لابولای حمله فعلا على توقيع أمر الافراج عن الفيكونت .. وكان ذلك في ذاته دليلا على صدق الفتاة . ولكنه أراد ان يكون على يقين . فاتصل بسجن لكسمبورج وعلم أن الفيكونت قد أطلق سراحه فعلا .

ورأى فارين انه يبغي عليه كنائب وطني حريص على مصلحة الجمهورية ان يعمل عملا . ولما كان الاقدام على اعتقال نائب من نواب الشعب .. ولا سيما نائب له مكانة لابولای . هو أمر من الخطورة بمكان . فانه أخذ يحصر ذهنه للوصول الى حل لا يجلب عليه لوما .. وقد وجد نفسه في مركز دقيق .. بين أن يغضب روبسبير بقعوده عن عمل ما .. أو يغضب لابولای .. باعتقاله حين يحتمل ان يكون لدى هذا النائب المتلص من الاسباب الوجيهة ما حمله على فعل ما فعل .

وقد هداه تفكيره آخر الامر الى حل وسط يرضي الجميع . فكتب الى روبسبير في (شانزنر) يلبئه بما حدث .. وقرر في ذات الوقت أن يأمر بتحديد اقامة لابولای في بيته . وبهذه الطريقة يستطيع روبسبير ان يجد لابولای متى أراده .. وتنحصر العصبة في أضيق دائرة ممكنة .

ولقد «فاربن» الى منزل لابولاى ومعه ضابط واثنان من الجنود • فلم يجد النائب • ولكنه علم من فرديناند انه ينتظر عودة سيده •

وكان فرديناند يخلص لسيده • وقد علمته الحوادث والتجارب فضيلة الكتمان • سيما فيما يتصل باعمال مجلس الشعب ورجاله • فلم يذكر لفاربن كلمة عن الحقيبة التي أمره سيده باعدادها •

ولم يجد فاربن وسيلة اخرى غير ان يترك الضابط والجنديين بمنزل لابولاى ويأمرهم بمنع النائب اذا عاد من مغادرة بيته • وباعتقال كل من يأتي لزيارته او يحاول الاتصال به •

وفي ذات الوقت •• ارسل الى أبواب باريس يأمر حراسها بمنع النائب من مغادرة المدينة •

فلما عاد لابولاى الى باريس • ودخل المدينة من بوابة سان مارتان لم يعترضه الحراس • لان الاوامر التي تلقوها تقضي بمنعه من الخروج • لا منعه من الدخول • وهكذا لم يعلم لابولاى بامر تحديد اقامته الا عندما دخل منزله وحدثه الضابط بتعليمات النائب « فاربن » •

ولقد تضايق لابولاى الضخم • وسأل :

ـ ولكن لماذا أيها المواطن الضابط ؟

فاجابه الضابط في أدب واحترام بانه جندي عليه ان ينفذ الاوامر دون ان يسأل عن ماهيتها والغرض منها •

وهكذا لم يسع لابولاى الا الرضوخ • فترك الضابط • وصعد الى غرفته •

ومن عجب انه لم يفكر في تلك اللحظة في لفه ، وانما انصرف كل تفكيره الى سوزان وكيف يمكن تذليل العقبات التي ما زالت تقف في سبيلها •

دعا اليه خادمه فرديناند •• وسأله عن سلوك الضابط والجنديين منذ دخلوا المنزل • فعلم منه انهم لم يمسوا شيئا • ولم يفتشوا اوراقه • وان الاوامر التي تلقوها تنصب على منعه من مغادرة المنزل فحسب •

فسأله :

ـ هل تعتقد ان في استطاعتك الخروج والدخول دون ان يعترضك معترض ؟

ـ من المؤكد انني استطيع الخروج .. ولكني لا اعلم ما اذا كانوا يسمحون لي بالدخول مرة اخرى .

ـ يحسبني ان يسمحوا لك بالخروج مرة واحدة .. قل لهم انك منطلق لاحضار طعام .. ولكني لا اريد طعاما .. بل اريدك على ان تذهب الى (شوازي) برسالة بهمني كثيرا الا يعرف بامرها احد من رجال الحكومة .

ـ اعطني هذه الرسالة يا سيدتي وكن مطمئنا .

فبحث لابولاي في اوراقه حتى عثر على جواز المرور .. فتناول القلم .. وفكر لحظة .. ثم كتب على الجواز اسماء : جوليا ميشيل وفرنسوا ميشيل وهنري روبير ، وصناعتهم: ممثلون .. ووجهتهم الى ، ستراسبورج ، .

وذكر على جواز المرور اوصافه واوصاف سوزان والديكونت فعل لابولاي ذلك وهو يحسب حسابا لاحتمال نجاته باحدى الحيل ، او بافضل ما يتمتع به من عطف روبسبير .. وفكر في انه اذا لم يتمكن من اللحاق بسوزان وخطيبها .. فانهما يستطيعان السفر وحدهما .. والاعتذار عنه اذا سئلا عن الشخص الثالث الذي ورد اسمه في جواز المرور بانه مريض ولم تسمح له حالته او ظروفه بالسفر ..

ثم تناول لابولاي ورقة وكتب لسوزان الرسالة التالية :

« ابعث اليك مع هذه الرسالة بجواز مرور لثلاثة اشخاص .. ولسوء الحظ انني لم استطع انقاذ بنفسي ، فقد انتفع الامر .. وانا الآن معتقل في منزل في انتظار عودة روبسبير ، ولكن امل عظيم في امكان الخروج من هذا المأزق بفضل عطف روبسبير علي ، ولهذا ارجو انتظاري بضعة ايام

اما اذا حدث ما ليس في الحسبان ، واتصل بك ان رجال اصبح متعذرا .. فارحل مع « دوسبريفال » في الحال ، واذا

سئلتها عني فاعتذرا بان المرض المعدني عن مواصلة السفر . واني اتمنى لك السعادة في اي بلد تقصدين اليه ـ .

ووقع على هذه الرسالة بالحروف الاولى من اسمه .. وارفق بها جواز المرور . واعطاها الى خادمه .

قرأت سوزان هذه الرسالة ثم دلفت بها الى الفيكونت لتقراها بدوره ثم هتفت :

ـ لا شك انك تعترفين الآن بانني كنت على حق حين برمت بالطريقة التي لجأت اليها لاطلاق سراحي .

فنظرت اليه في صمت . .

كان الحزن يعصر قلبها .. فانها قبلت كارهة ان يضحي لابولاي في سبيلها بمركزه ومستقبله .. اما الآن وقد اضفت التضحية الى حياته .. فانها احست بالحزن والندم .. وبرزت امام عينيها جميع المظالم والمكاره التي انزلتها وانزلها دورها بهذا الرجل النبيل الخلق .. فاستحال فوزها ببقينها قذى في عينيها وغصة في حلقها

اجابت الفيكونت في ضجر :

ـ احسب اننا انتهينا من المناقشة في هذا الموضوع يا سيدي .

ـ انتهينا ؟ وهل مثل هذا الموضوع يحسم بالالفاظ ؟

فاجابته بصوت يرتجف :

ـ كلا يا سيدي .. انه يحسم بتضحية حياة رجل

ـ ولكن ماذا في نيتك ان تصنعي الآن ؟

ـ ماذا يجب ان نصنع يا سيدي .. ليس في استطاعتنا ان نختار ؟

ـ وهل هناك سبيل للاختيار ؟ امامنا سبيل واحد .. فجواز المرور بين ايدينا .. ويجب ان نرحل في الحال .. لان كل دقيقة نمكث لا تعرض فرارنا للخطر فحسب .. بل تعرض كذلك حياتنا ..

ـ ولابولاي ؟

ـ انه يقول بنفسه انه ليس في خطر شديد .. ثم انه

موجود الآن بين زملائه . وهو يعرف كيف يخلص نفسه .. فلماذا سنتهدف للخطر من اجله .

ـ لا تنس انك نسيت ما فعله من أجلنا .. ونسيت انه انقذك من مخالب الموت .. فهل من الامانه ان تتخلى عنه وتلوذ بالفرار ؟

ـ ان مركزه ليس اخطر من مراكزنا .. نحن اذا اكتشف امرنا هلكنا . اما هو فانه واحد من الرعاع .. والرعاع لا يأبهون بعضهم بعضا .

ـ اصغ الى يا سيدى .. اننى لا ألوى المضى فى هذا الجدل العقيم . سأطيع صوت ضميرى .. وسأنتظر حتى يقضى الله فى أمره . وسأبعث اليه مع خادمه برسالة شفويه بهذا المعنى .

وقد نام لابولاى فى تلك الليلة آمنا مطمئنا قرير العين . فقد لفق دهنه عن حيلة للفرار قرر أن يشرع فى الصباح فى تنفيذها .

ولكن الصباح أبطل مفعولاته غير المنتظره .. ذلك ان روبسبير عاد الى باريس مسرعا منذ قرأ رساله فارين . وقصد لتوه الى منزل لابولاى .

وكان لابولاى لا يزال فى ثياب النوم . عندما دخل عليه روبسبير وهو اخضر بشره الوجه . بسطاير من عينيه الصغيرتين الضيقتين شرر الغضب .

هتف لابولاى عندما راه : اهذا انت يا روبسبير ؟!

فاجاب روبسبير ببرود :

ـ اشكر لك هذا الاستقبال الودى .

ثم تقدم الى الامام واستطرد بصوت كقصف الرعد :

ـ ما هذا الذى قيل لى انك فعلته أيها التعس ؟!

ورأى لابولاى من الجنون ان يحمل على مصاحبة غضب روبسبير فاعترف بهفوته فى تواضع . وختم كلامه بالتماس الرحمة من صديقه .

ولكن الرجل الذى لا يعرف فى الحق لومة لائم زمجر وهتف:

ـ ايها الخائن .. أتحسب ان الكلمات الجوفاء المسمولة التي تعودت ان تغرى بها الاسماع في مجلس الشعب تشفع لك في التآمر ضد الامة ؟ يخيل الى ان اخلاصك ليس الا مجرد الفاظ وعبارات ولكن اولئك الذين يطمعون في ان يبقى رؤوسهم فوق اكتافهم في فرنسا يجب ان تكون عدتهم الافعال لا الاقوال . فاذا اردت ان تنقذ حياتك . فنبئني بما فعلت بذلك الارستقراطي اللعين .

فاجاب لابولاى بهدوء : انه هرب

ـ لا تخدع نفسك يا كارون . ولا تحاول ان تخدعني ايها المواطن السائب .. انك اخفيته في مكان ما .. اذا لم يكن في مقدورك امداده بالاوراق التي تساعده على الخروج من فرنسا . فاخبرني .. اين هو ؟

ـ انه هرب .. لقد اطلقت سراحه فانتهز الفرصة . وذهب الى حيث لا تصل اليه يدك .. هذا كل ما في استطاعتي ان اقوله .

فكشر روبسبير عن انيابه وصاح : هذا كل ما في استطاعتك ان تقوله ؟ بماذا تحلم ايها الاحمق ؟ هل تعتقد انني اسمح لك بانقاذ هذا الكلب من قبضتي ؟ الم اقل لك اني على استعداد لان اسحق حياة عشرة من النبلاء دون هذا النبيل ؟ يالله .. من انت يا رجل .. من انت يا لابولاى حتى تقاوم ارادتي ؟!

ونظر الى الشاب بامعان .. ثم كظم غضبه . واستطرد في رفق :

ـ تكلم يا كارون .. اخبرني ماذا فعلت به ؟!

ـ انه هرب ..

فثار غضب روبسبير مرة اخرى وضرب الارض بقدمه وصاح :

ـ تعال ايها المواطن الضابط ..

ثم التفت الى لابولاى وقال في هدوء :

ـ ما دمت ترفض ان تعود الى صوابك فيجب أن تصعد درجات الجليوتين بدلا منه .

وتحول الى الضابط وقال :

ـ اقبض على هذا المائن .. واذهب به الى سجن « لكسمبورج »

وانطلق روبسبير لا يلوى على شيء ..

وبقي لابولاى جامدا في مكانه لحظة . ثم قال :

ـ أرجو أن تسمح لى بارتداء ثيابى أيها المواطن الضابط ..

تعال يا فرديناند .. وساعدنى على ارتداء ثوبي .

وقد حانت له وهو يرتدى ثيابه فرصة فهمس فى اذن خادمه :

ـ أنبئها ..

ولم يجسر ان يقول اكثر من ذلك .. ولكن الخادم سمع .. وفهم .

وبعد بضع ساعات كان فرديناند يحدث سوزان بتفاصيل ما حدث بين لابولاى وروبسبير .. وكيف نقل الاول الى السجن .. فاغرورقت عينا الفتاة بالدموع .. وهمست بصوت حزين :

ـ مسكين هذا الرجل الامين ..

وعلم دومبريفال بالامر فنهض بارتياح وقال

ـ اذن قد انتهى الامر .. ولم يبق ما يستوجب الانتظار .. فهل نرحل الآن ؟

فنظرت اليه مستنكرة واجابت :

ـ اسأل الله الا تكون هذه هى النهاية .. ولكن سواء أكانت النهاية أم لم تكن .. فسننتظر حتى لا يبقى مجال للأمل .

ـ ٢١ ـ

المحاكمة

وقف النائب كارون لابولاى امام « محكمة الثورة » متهما بخيانة الامة وعرقلة سير العدالة .

ونهض النائب العام « فوكيه تنفيل » .. محدد التهم الموجهة الى لابولاى . وأوضح طبيعتها .

ولأول مرة نوجه في محكمة فوكيه تنفيل شيء من العنف .. ولأول مرة نوجه على رجال لابولاى الذين اجتمعوا لمحاكمته والقضاء في أمره شيء من القلق والتردد .

ذلك لأن الثورة كانت ما تزال في بدايتها .. ولم تتحرر بعد شهوتها لانتهام أبنائها .

ومع هذا فقد كانت الجريمة واضحة جلية .. لا تحتاج في صياغة الاتهام .. أو مزيد من عناصر التحقيق والقضاء .

وقد اعترف لابولاى بجريمته . فلم تكن ثمة حاجة الى تقديم أدلة وشهود .

ولما حم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين رأيهم في أمر التهم . حدثت بين هؤلاء حركة غير عادية .. وخرج من بين صفوف المحلفين رجل قصير القامة يرتدي ثوبا أزرق . ويضع على عينيه عويذات كبيرة .

وقف هذا الرجل بجانب فوكيه تنفيل .. وبدا يتطلع الى المتهم

فإن هذا الرجل هو روبسبير .. وقد اعتلى قلبه المتطرف في دهشة وعجب . فهم لم ينسوا أن روبسبير هو الذي وجه اتهامه الى رجله وزميلهم . وهم لم ينسوا أنه الذي أمر بالقبض عليه

تعلم روبسبير الكثير في غياب بليغ قوي .

عدو فضائل المتهم . وخصمه للجمهورية . وإخلاصه السابق للتاج .. ووقف على الشطر النفساني الذي انفرد بارتكاب الجريمة وأوضح هذا الموقف . ثم طالب المحلفين بأن يزنوا بين ماضي المتهم وجريمته .. وأن يمنحوه فرصة للتعبير عن ندمه وتجرده من ثروته السابق بينهم . والمكانة التي كانت له في قلوبهم .

وقد أحسن دفاع روبسبير البليغ أثره المطلوب . وكان

المحلفون بطبيعتهم يميلون الى اخذ المتهم بالرحمة • لانهم من اعلم الناس بنواقصه التي لصقت فوق صفوف البلاه والحولة • فعبروا عن استعدادهم لمعاملته بمنتهى الشفقة • والسماح بقصوره له • واستقباله سهم كما يستقبل الابن الذي ضل •• وطلبوا الى رويسبير ان يذكر نوع العمل الذي يتعين على لابوراي ان يكفر به عن جريمته لكي يرد اليه اعتباره ويعود الى مكانه في مجلس الشعب • فصاح روبسبير

ـ دعوه يصلح ما افسد • ويمحو العلامة التي نرتكبها في سلطة ضعف وتخاذل • دعوه يرد الى ذلك الانسان الطفل الذي حاول القاءه فعوده بفعل ذلك فصلم من عقوقه • واستقبله بسواعد مفتوحة كما يستقبل الابن الذي شرد •

فدوى المكان بالتصفيق •• واتجهت جميع الانظار الى لابوراي • وارتفعت الاصوات تحثه على الاستجابة الى صوت روبسبير •• صوت الحكمة والصواب والعقل •

ووقف لابوراي صنيع الوجه لامع العينين •• ولكنه عاد، لابث

اثرت به هذه المكاشفة الودية التي نبع من رحابه صدر واخوة كريمة ولكنه لم يتحول عن عزمه

تكلم بصوت واثق فشكر لزملائه عطفهم وحنانهم ورحمتهم وختم كلامه بقوله :

• ولكني للاسف لا استطيع الافادة من هذا المظهر الرائع من مظاهر الرحمة والعطف

ان ما فعلته لا يمكن الرجوع فيه •• فالشاهد الصغير سيراها ايها الوطنيون

ان الابطال طبيعة لوطنكم •• وهو وقت الازمة • •

فزار لوكه قليل • وقد حرك التعصب في نفسه شعوذة سفلة السماء :

ـ هذا لعب صريح •• ان الذي لا يشعر قلبه بعطفنا لا يستحق رحمتنا •

واستطلع الرأس راي المحلفين فقرروا بالاجماع انه مذنب •

وهم الرئيس بإصدار الحكم .. وعندئذ وثب روبسبير على قدميه مرة أخرى

كان روبسبير العصبية في قمتها على كظم عواطفه . فدنا الكلام لم يطلب اعدام المتهم . بل تقدم برجاء جديد .

طلب ان يراعي عند اصدار الحكم ان يمهل المحكوم عليهما وعشرين ساعة لمراجعة نفسه والتفكير في امره . فلعل الوقت يكفيه الى الاعتراف بمؤامرة الفيكونت دومبرجال . لعلهما يعيدان النظر في امرهما اذا ما اصر على صمته وانكاره حتى ظهر اليوم التالي تحتم عندئذ ان تأخذ العدالة مجراها . وان ينفذ الحكم .

وقد قوبل هذا الرجاء بدهشة من الجميع . ولكن روبسبير دافع عن رأيه بقوة . وايده بعبارات قوية . لعلهما ان لافوازيه كان من خدام الامة ومن مصلحة الامة ان يعيش اذا امكن لتفيد من مواهبه وخدماته . وان دومبرجال ارستقراطي حقير يسر كل جمهوري صميم ان يرى رأسه في الاوحال .. وان المهلة المطلوبة قليلا من الهما لا تضر أحدا . فانها قد تؤدي الى خلاص الفريقين .. لجاد لافوازيه . وموت دومبرجال .

وهكذا استطاع روبسبير اخر الامر ان يقول بأرضه .. فصدر حكم الاعدام مؤرخا بوعد بالعفو اذا عبر المتهم ـ خلال اربع وعشرين ساعة ـ عن توبته بارشاد الجمهورية الى مكان دومبرجال . .

وقد أجال لافوازيه نظرة شاردة في قاعة الجلسة وهو يسمع الحكم ولمعت عيناه فجأة حين وقع بصره على وجه ممتلئ حزين تتألق فيه عينان مفتوحتان مجنونتان .

هرف وجه سوزان . ومرت بجسده قشعريرة قوية حين ادرك الخطر الذي استهدفت له بحضورها محاكمته .

واخيرا ملك نفسه .. وتحول الى اخوانه وجلاديه وقال بصوت واضح النبرات :

ـ ايها المواطن الرئيس .. ايها المواطنون .. انني اشكركم .. واقدر شعوركم نحوي حق قدره .. ولكني لن أتحول عن عزمي .

فصاح الرئيس في الحاجب : اتركوا به .
وظلت سوزان الرقيب لابولاى بعينين واهتين حتى خرج به الحراس .. ثم غادرت قاعة الجلسة والدموع تنهمر على خديها .. والحزن يعصر قلبها .
شعرت بان لابولاى لم يوجه عباراته الاخيرة للرئيس المحكمة والمحلفين .. وانما وجهها اليها .. ليشجعها .. ويؤكد لها انه لن يكون دومينيكال
ليهنئها ..
ابتسمت بمرارة وهى تجلس فى المركبة التى اقلتها الى (شوازى) .
لقد فعل لابولاى كل ذلك من اجلها ..
ضحى بحياته الغنية لانقاذ خطيبها .. لانقاذ الرجل الذى كان يدوم اليها لحبه ..
اذعنت لحكم المحكمة وليتها .. وتذكرت الافكار التى طالما تحيرت فى ذهنها بشأن هذا القلب الجمهورى ..
لم تكن قط قد نظرت اليه كما تنظر الى واحد من طبقتها .
كانت تحس دائما بان حياة هوه .. هوة سحيقة تفصل بين ليليا وصفوة اصله . أما الآن فقد اقتضت الاحداث وحتمها حين تذكرت كيف انها انسانت اليه بهذا الاندفاع .
سألت نفسها هل هى حقا اقبل منه ؟!
ربما كانت اقبل من حيث الاصل والمولد .. اما من حيث النفس فهو بلا شك اقبل وجل ولدته امراة
عادت سوزان الى (شوازى) وهى لهبة الحزن والجزع . ولاحظ دومينيكال ـ وهو الذى تعود الا يلاحظ الا ما يتصل بشخصه ـ جزعها وانقلاب صحتها .. وخشى ان يكون لابعادها صلة بسلامته . فسألها فاجابته :
ـ لا شىء .. او على الاقل لا شىء من شأنه ان يزعجك .. لقد حكموا على لابولاى بالاعدام .
فتنهد بارتياح واجاب :

ـ يعلم الله انهم اعدموا كثيرين من الابرياء ، وها قد حان اخيرا الوقت الذى ياكل فيه بعضهم بعضا .

ـ يخيل الى ياسيدى انك نسيت السبب فيما اصابه ؟

فاجاب وهو يبتسم :

ـ كلا وحق السماء .. السبب انه كان من الحمق بحيث سحرته اجمل عينين فى كل مرتسا . فاضاع نفسه فى خدمة صاحبة هاتين العينين .. ولعمرى .. انه ليس اول من ضيعته عيون الحسان .

ـ يلوح لى انك لا تقيم وزنا لنصيبك من الخدمة التى ادتها لصاحبة العينين اللتين تتكلم عنهما .

وصمتت لحظة ثم استطردت كانها تحدث نفسها

ـ ومهما يكن من امر فمن المحتمل رغم كل هذا ان ينجو .. لانهم وعدوه بالعفو بشروط .

ـ ما اظرف هذا .. ان لهم طريقة بشاشة فى تحقيق العدالة .

ـ والشروط هى ان يكفر عن جريمته بارشادهم الى مقر الفيكونت دوجيرفال .

فصاح الفيكونت فى هلع وذعر . وقد غير لونه .. وزاغت عيناه :

ـ يا الهى ..

ولقد لسوزان ان ترى التحول السريع الذى طرا على سحنته . سالته :

ـ هل يهمك الآن امره يا سيدى ؟

ـ سوزان .. انه يعرف مكانى . انه الذى جاء بى الى هنا .. يجب ان ارحل فى الحال . هلمى بنا . ولا تضيعى دقيقة واحدة انى اعرف هؤلاء الجمهوريين هذا الشاب لن يتردد فى الوشاية بى لانقاذ نفسه .

ـ ماذا تقول ايها الاحمق . اتقول انه يشى بك ؟! هو يشى بك ؟

ثم رفعت عينيها الى السماء . وضحكت ضحكة عصبية واستطردت :

ـ كن مطمئنا يا سيدى الفيكونت . فان حياتك بين يدى انبل مخلوق على ظهر الارض .. ولو كان فى نيته ان يشى بك لفعل ذلك قبل الآن .

ـ ولكن . ربما فعل ذلك اليوم او غدا .. آه .. يا الهى . لماذا لم تصغى الى يوم لصحت لك بالهرب ؟

ـ لأنه لم يكن فى نيتى وليس الآن فى نيتى ان اهرب .

ـ هل جننت يا سوزان ؟ هل تريدينني على ان اموت كالكلب لكى ينفذ هذا الوغد الجمهورى نفسه .

ـ قلت لك ان تطمئن لانه لن يخونك .

ـ لن يخونني ؟ كيف تطمئنين الى وعد نذل حقير كهذا .. انه لا يعرف للشرف معنى .. مجلس الشعب كله لا توجد به ذرة واحدة من الشرف .

فلمعت عيناها فى غضب وصاحت : اتجرؤ على التطاول بكلمة (الشرف) ؟ هل نسيت لماذا حوكم ولماذا يموت ؟ الا ترى ما ينطوى عليه فرارك من النذالة وتتكلم مع ذلك عن الشرف وتتكره عليه ؟ ان فعلتك تدعني .. لقد كان لابوللى على حق حين قال ان الشرف عندنا نحن معشر النبلاء اسم على غير مسمى .

وتركته وانطلقت الى غرفتها . وهناك اطلقت العنان لعبراتها .. وبكت ما شاء لها الحزن والاسى ان تبكى .

ولم تجتمع سوزان بخطيبها الا فى صباح اليوم التالى .

كان كلاهما شاحب اللون متقلب السحنة .. مما يدل على انهما لم يناما الا قليلا .. او لم يناما على الاطلاق .

تناولا طعام الافطار فى صمت .. ثم تكلم الشاب اخيرا .. وسأل الفتاة عما اذا كانت لا تزال عند رايها الذى عبرت عنه فى اليوم السابق .

واجابته ان رايى لم يتبدل على اننى كنت ارجو ان يكون تفكيرك اثناء الليل قد هداك الى تعديل رايك .

ـ انني لا افهم كيف يمكن ان اعدل رايى .

فسألته ببرود :

ـ الم يخطر لك ببال ان هذا الرجل سيموت فداءك ؟
ـ بل لهذا خطر ببال ان هذا الجبان قد يعدل عن ذلك في اللحظة الاخيرة لينقذ جلده القذر .
فنظرت اليه في عجب . واعظمها ان تصل به الانانية الى هذا الحد .
ـ الك تتبرع على الناس بالاوصاف بسخاء وتنسى انك اجبن منهم .
ـ ماذا تعنين ؟
ـ انت تصف هذا الرجل بالنذالة .. ولكنك تنسى الذلل الذي ينطوي عليها عملك اذ تتوارى عن العيون وتتركه يعود عوضا عنك .
فهتف وقد احمر وجهه :
ـ النذالة ؟ .. هذه كلمة لا يخلق صدورها من تفكر في ان تحمل في احد الايام اسم (الفيكونتس دوميربلال)
ـ كن مطمئن البال يا سيدي .. فانني لا افكر في ان احمل هذا الاسم في احد الايام .
فنظر اليها في دهشة وغضب . وسأل :
ـ انت بغير شك لا تعنين ان في نيتك فسخ الخطوبة ؟!
ـ انا اعني يا سيدي انه ليس في نيتي ان اتزوج برجل لا احبه ..
ـ ان اموالك واعمالك تنم عن نفوذ عجيب يا آنسة . وقد لا يبعد ان اراك في احد الايام تتزعمين الطبول امام شرذمة من رعاع باريس كما فعلت قبلك الآنسة دي ميريكور .
فتهللت والفة .. وهي تحدثه امتقاع الوجه .. وحمرة في وجهه بحدة ثم قالت :
ـ لنترك الكلام عن انفسنا . يوجد الآن في السجن رجل سيعدم ظهر اليوم عالم تلزم نفسك لانقاذه .
الله شخصيا لن يشي بك لاله .. ولكن دعنا من هذه الاسباب . الله لن يشي بك وكفى . فاخبرني يا سيدي ؟

يا من تعتبر نفسك رجلا شريفا .. ماذا في نيتك ان تفعل في هذا الموقف ؟

فهز كتفيه واجاب :

ـ متى أعلم دون أن يشي بي .. اصبح من السهل القاءك بعلم الانتظار وضرورة الزواج .

ـ الا يهيب بك شرفك مثلا ان تنصب الى السجن وتحتل مكانك فيه عوضا عن الرجل الذي يوشك أن يضحي بنفسه من اجلك ؟

فلهم .. وغاص قلبه بين ضلوعه .

اجاب : هاأنذا قد فهمت اخيرا ما كان يدور بخلدك ليلة امس يا فتاة .. فهمت السبب في شحوبك وغرابة اطوارك .

لقد خطر لك ان واجبي كرجل شريف يحتم علي ان ابادر الى انقاذ الرجل .. ولكن فكري في الامر جيدا يا بليتي العزيزة .. فكري في من هو ومن انا .

لو انه كان نبيلا مثلي ما ترددت .. ولعرفت ما يقضي به الواجب .. اما وهو من الرعاع .. كلا .. كلا .. هذه خواطر لا تخطر ببالك .

فاجابته ببرود :

ـ لقد فهمتك .. انك تجادل بسلاح الجبان .. حقا . الذي لا يخشى ان تكون في فرنسا الآن ثورة .

وشملته بنظرة احتقار . وتركته وعطست

ـ ٢٢ ـ

في السجن

اخذ المحكوم عليهم بالموت يبرحون السجن الى العربة التي ستنطلق بهم الى ساحة الاعدام .

كان عددهم اربعة عشر شخصا يتلهم امرأة لا تقل نبالة ورباطة جاش عن زملائها الرجال .

هبطت هذه المرأة السلم في هدوء وطمأنينة وهي تتحدث

الى شاب في نحو الثلاثين من عمره .. كان قبل الثورة جوهرة في صدر الصالونات والمحافل .

سار الاثنان جنبا الى جنب .. وهما يتحدثان ويضحكان .. كأنهما في طريقهما الى عربة العرس .

كان جميع المحكوم عليهم ـ ما عدا واحدا ـ من النبلاء .. واذا كان هؤلاء القوم لم يعرفوا كيف يعيشون . قد عرفوا على الاقل كيف يموتون .

ساروا من السجن الى العربة أزواجا .. وهم يبتسمون لا عن طمأنينة حقيقية .. وانما بدافع من الصلف الغريزي الذي صالهم اخيرا الى حتوفهم .

كلفوا يريدون أن يموتوا نبلاء كما عاشوا نبلاء .. فليسخر الغوغاء بجثثهم بعد موتهم ما شاءوا .. ولكن يجب الا ينسى الرعاع بهم وهم احياء .

وسار لابولاى في مؤخرة الموكب المشؤوم .

كان يمشي وحده .. اذ لم يكن بين اولئك النبلاء المغرورين من يرضى بزمالة ابن الشعب . حتى في الطريق الى الموت .

اوشك لابولاى أن يبرح باب السجن . حين امتدت يد احد السجانين وامسكت بكتفه . ودلفته الى احدى الغرف الجانبية .

وفي ذات الوقت .. فتح باب آخر في الغرفة ودخل منه روبسبير ذلك الرجل الذي لا يرتشي ولا يعرف في الحق لومة لائم .

اقترب روبسبير من الشاب . ونظر اليه بحدة . ولاحظ عدوه ونباته . وارتسمت في عينيه الصغيرتين نظرة اعجاب .

ولكن وجهه ظل يحتفظ بجموده وقسوة ملامحه .

حياه لابولاى باحترام وهو يبتسم .. وشكر له فطنته واعتذر عن سلوكه في اليوم السابق بقوله :

ـ لم يكن لي ان اختار يا مكسيليان .. كان على واجب لا بد من أدائه .. ومن دواعي الاسف ان تعارض هذا الواجب مع رغباتك .

التي ادين لك بالكثير .. ولا يسعني الا الشعور بالخجل

كلما فكرت في انني جحدت فضلك .. ولكني ارجو ان الله يعوفني عن هذا الجحود .

فصاح روبسبير :

ـ ايها الاحمق . انك تضحي بحياتك هباء .. فالرجل الذي تحاول انقاذه هو مخلوق دنيء لا يساوي فلامة ظفر .

انني لم احضر الآن لاكلمك عن محمودك .. وانما جئت في هذه اللحظة الاخيرة لاحملك على التفكير في نفسك .

وبسط ساعديه في شيء كثير من التواضع .. وارتسم على وجهه معنى بليغ من معاني الاستعطاف لم ير مثله انسان على وجه روبسبير العظيم ..

ولمسهم : فكر في نفسك يا عزيزي كاروز .

ولكن الشاب هز راسه وقال :

ـ يا صديقي . يا اكرم اصدقائي . اضرع اليك الا تضاعف الامي التي حزمت امري وانهى كل شيء .. فلا تضاعف برجائك الحزن الوحيد الذي يملأ جوانب نفسي .. وهو حزني لانني اغضبتك .. وجحدت فضلك ..

ليس من الصعب ان يموت الانسان يا مكسيليان .. وانما من الصعب ان يعيش بلا شرف .. وبلا اهنبة .

انني سأموت الآن .. واموت قرير العين .. وستدفن معي امالي وآمالي .. ويحسبني ان اكون ارضيت ضميري . وشرفي . فاصفح عني يا مكسيليان .. ودعني اذهب في سلام .

فنظر اليه روبسبير في دهشة .. ثم حرك يده بضجر وقال :

ـ ما اشد حمقك .. انك لتنتحر .. ولماذا ؟! من اجل حلم .. من اجل وهم .. فهل هكذا يموت الرجال يا كاروز ؟ هل هكذا ..

ثم تحول فجاة الى السجان الذي اقترب منه ومن ساعده حرسين . وصرخ في وجهه :

ـ ألا تسمعني أيها الحيوان .. ألا ترى انني اتكلم .

ولكن الرجل اقترب منه خطوة اخرى .. وهنـن لن اذنيه كلاما ، ما كاد يسمع اوله حتى ظهرت على وجهه علامات الاهتمام ..

همهم اخيرا :

ـ آه .. اذن لا تدع المواطن لابولاى ينصرف حتى اعود ..

وانطلق من الغرفة مسرعا .. وبقى لابولاى مع السجان .

اخذ ينصت الى هتاف الغوغاء في الخارج .. والى الشتائم التي يصبونها على المحكوم عليهم .

وانفضت الدقائق . وضرب لابولاى الارض بقدمه كان هذا الانتظار بالنسبة اليه بمثابة اطالة مدة احضاره اخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابا حتى فرغ صبره فصاح:

ـ يا الهى ، ألا يعود ابدا

وقرعت الطبول في الخارج فجأة . وارتفع صياح الرعاع .. فسرت برجده رعدة . وسأل :

ـ ما هذا ؟

ـ فاطل السجان من النافذة الصغيرة المشبكة بالحديد واجاب وعلى وجهه علامات الدهشة :

ـ لقد تحركت عربات الموت وتركتك أيها المواطن .

فتطلب لابولاى حاجبيه .

لم يفهم لذلك معنى الا ان يكون روبسبير قد ارجأ اعدامه يوما آخر وترك له فرصة اخرى للتفكير عسى ان تحل عقدة لسانه .

زمجر مغضبا .. وضرب الارض بقدمه مرة اخرى .

وفي هذه اللحظة .. فتح الباب فجأة .. ودخل روبسبير .. ولكنه لم يتقدم .. بل ظل واقفا .. وممسكا بالباب .. الى ان دخلت امرأة طويلة القامة .. رشيقة القوام .. تطلع على وجهها قناعا سميكا

رأى لابولاى هذه المرأة .. وأحس بانفاسه تحتبس .. وبقلبه يكف عن الحركة .

صار روبسبير وراء المرأة .. والتفت الى السجان قائلا :

ـ اتركنا ..

وما ان انصرف السجان .. حتى رفعت المرأة قناعها .. وعندئذ رأى لابولاى الوجه الذى توقع أن يراه .

رأى وجه سوزان دى بيلكور الجميل

ولكن وا أسفاه .. لقد كان الألم مرتسما بأجلى معانيه على هذا الوجه الشاحب الساحر .

تقدمت سوزان الى الامام .. ونظرت اليه بامعان .. والتفتت من فمها آهة عميقة .

ثم نظرت أخيرا الى روبسبير الذى ظل واقفا على بعد خطوتين أو ثلاث وقالت له فى ضراعة :

ـ انبئه يا سيدى .

فأجال روبسبير البصر بين الفتاة والشاب .. ثم قال :

ـ المسألة باختصار أيها العزيز كارون . هى ان اهتمام هذه المواطنة بحياتك كان أعظم من اهتمامك . وقد قدمت لى الآن خدمة مزدوجة فأتاحت لى ان أتأكد صدقها . وان أنتقم من عدو .

انها جاءت فى اللحظة الاخيرة لتساومنى على حياتك . فاقترحت أن ترشدنى الى الفيكونت دومبريفال بشرط أن أطلقك عفوا شاملا .

وفى استطاعتك طبعا أيها العزيز كارون . ان تدرك مبلغ ترحيبى بهذا الاقتراح . وبأى سرور أقول لك الآن انك أصبحت حرا طليق السراح .

فصاح لابولاى وهو يقلب البصر بحدة بين وجه سوزان ووجه روبسبير :

ـ طليق السراح ؟

واستقرت عيناه اخيرا وطويلا على وجه سوزان كأنه يحاول التغلغل في قرارة نفسها .

أجاب روبسبير :

ـ نعم .. أنت حر مطلق السراح .. وفي استطاعتك ان تبرح هذا المكان متى اردت .. وكل ما هنالك انني ارجوك ان تلزم بيتك بعض الوقت حتى يتم لنا اعتقال دومبريفال .

وعني اعتقل وجيء به الى باريس .. بعثت اليك بالأوراق التي تمكنك من مغادرة فرنسا .

ان لحبابك وان كان يحزنني .. الا انني ارى ان من الاصلح لك بعد الذي حدث .. ان تشق طريقك في الحياة في بلد آخر

قال ذلك ونكس على عقبيه وانصرف .

وظل لابولاي جامدا في مكانه لحظة كأنه لا يصدق اذنيه .

واخيرا تقدم خطوة نحو سوزان وهتف :

ـ أهذا ما فعلت ؟ أهكذا تخونين خطيبك ؟

فصاحت وهي ترتعد :

ـ لا تقل هذه الكلمة ياسيدي .. ان عملي لا يعد خيانة .. لقد أرادك على ان تموت عوضا عنه .. ولم يفكر لحظة واحدة في ان يفعل ما يقضي به الشرف والواجب .. بل انه وجد في موتك من دونه سبيلا لتسليته .. وسببا للهزؤ بك واهانتك

انه كان يرضى عن طيب خاطر ان يهلك عشرات من الناس لتفجر حياته التافهة .

فقال لابولاي محتجا : ولكنه كان خطيبك

ـ هذا صحيح .. ولكن كان على ان اختار بين الرجل الذي اراد ني على اتزوجه . والرجل الذي احبه .

وصمت لحظة .. ثم استطردت في همس . وقد تورد وجنتاها

ـ ولكي انقذ الرجل الذي احبه .. قد وشيت بدومبريفال .

فهتف لابولاي . وهو يحتويها بين ساعديه :

ـ سوزان !!

((تمت))

روايات عالمية

أقوى سلسلة أدبية في الشرق الأوسط

تظهر يوم السبت من كل أسبوع

٥٠ شارع محمد فريد

ت ٢٩٤٠١ الثمن ٣ قروش

ثمن النسخة : في الاقليم المصري : ٣ قروش

" في الاقليم السوري : ٥٠ قرشا

في المملكة السعودية : ٢٠ قرشا

في لبنان : ٥٠ قرشا

في العراق : ٥٠ فلسا

في الأردن : ٥٠ فلسا

في الكويت : ١٥ آنه